

المجتمع الأندلسي، والمجتمع الإسباني في عصر ملوك الطوائف

د. أحمد بدر

جامعة دمشق

استمرت الوحدة السياسية في الأندلس ثلاثة قرون ، منذ فتحها في أواخر القرن الأول الهجري وحتى آخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي . وزادت في القرن الأخير مركزية الحكم والإدارة ، وبلغت الأندلس أوج قوتها وازدهارها ، فأصبحت دويلات الشمال الإسبانية تدور في فلكها ، وقرابة نصف المغرب العربي الإسلامي يخضع لنفوذها المباشر في قسم منه ، وغير المباشر في القسم الآخر . وارتقت بنتيجة قوتها السياسية وازدهارها الحضاري إلى مرتبة الدول الأولى في العالم .

انهارت هذه الوحدة السياسية في خضم ما سمي بالفتنة ، وكانت عبارة عن ربع قرن من الحرب الأهلية ، التي جرت بالعاصمة قرطبة بين عناصر متعددة من المجتمع الأندلسي ، حاول فيها كل عنصر تنصيب شخص من الأسرة الأموية على سدة عرش الخلافة ، كي يحكم الأندلس به ومن ورائه . لكن الفشل حاق بالجميع ، ففقدت كل قوة بالاكتماء بحكم منطقة من الأندلس تتوافر لها فيها القوة . كما أن حرك المركز أدت لانحلال سلطة سلطانه واستقلال القوة المحلية عنه . ودعيت الدويلات هذه باسم الطوائف التي تعني الزمر والفئات والأشتات ، دون أن يكون لها صلة بمذاهب فكرية أو فرق دينية أو مذهبية .

* * *

ومن الصعب تحديد عدد الدويلات التي نشأت لان الانحلال كان عاما وشاملا ، والتمزق كان شديدا . فقد قامت أسر اقطاعية قديمة بالاستقلال في مناطقها ، كما هو حال بني نجيب وبني هود في الشفر الأعلى منطقة سرقسطة ، وبني ذي النون في الشفر الأوسط ، طليطلة وماحولها ، وبني الاقطس المكناسيين في الشفر الأدنى بطليوس . وقام الجند والعبيد الصقالبة بإنشاء دول عديدة لهم في شرق الأندلس ،

في دانية والجزر ، في بلنسية وفي المرية ومرسية . أما الجند المغاربة ، أو من سماه الاندلسيون بالبربر ، فاقاموا عدة دول في الجنوب ، اكبرها دولة بني زيري فسي غرناطة ، معتمدة على عصبية العشيرة الزيرية ، وتليها دولة بني برزال في قرمونة بين قرطبة واشبيلية ، اضافة لعدة دويلات اصغر في الجنوب والجنوب الغربي من الاندلس . اما في الحاضرتين الكبيرتين على نهر الكبير الشمالي ، فاقامت الارستقراطية العربية دولة بني عباد في اشبيلية ، وعلى رأسها قاضي المدينة وكبير اغنيائها ، وفي قرطبة عاصمة الخلافة اقامت ارستقراطية الوظيفة ، او طبقة موالي الامويين ، دولة ترأسها ابن جهور . اضافة لهؤلاء الذين سادوا مناطق توفر دعامة مادية وبشرية لقيام دولة استقل العشرات من الاشخاص الصغاليك ، او من سماهم الاندلسيون بالدابرة ، بحكم بلد صغير او حتى حصن ، ولكن هؤلاء لم يلبثوا ان ابتلعوا من قبل الدول الاكبر المجاورة ، التي استطاعت ان تعيش العصر كله ، وهو ثلاثة ارباع القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي . اما عدد السكان الذين تقاسم السلطان عليهم ملوك الطوائف فلا يمكن معرفته على وجه الدقة او وجه اليقين . وان كان من المفيد هنا ذكر أحد التقديرات عند الباحث الاسباني رامون ميننديث بيدال ، الذي يبنينا على رسالة موجهة من البابا غريغوريوس السابع للافونسو السادس غازي طليطلة ، ينعت فيها بانه صاحب رعية من مليون رجل ، ويخلص في تقديره الى ان عدد سكان الجزيرة الايبيرية كلهم يصل الى مابين ثمانية وتسعة ملايين نسمة منهم ستة يخضعون للملك الطوائف . ومع ذلك قدر للعدد الاقل ان يتغلب على العدد الاكثر ، الذي كان يعاني من تفكك وتمزق على صعد مختلفة ، اضافة لشيوع انحطاط معنوي في مجالي العقيدة والاخلاق في قطاعات واسعة من ابنائه . وتبين لنا الابعاد الدقيقة لهذه الاوضاع التي كانت سبب قوة للبعض ، وعامل ضعف للبعض الاخر ، اذا استعرضنا اوضاع المجتمعين : العربي الاسلامي من جهة ، والاسباني الكاثوليكي من جهة ثانية ، عبر المجالات المختلفة .

السلطة في مجتمع الطوائف - بين الاساس النظري والواقع الفعلي .

وفقا لما ترسخ في العقول وقر في النفوس بالاندلس ، من ان مصدر السلطة هو الله عز وجل ، مارسها الرسول الكريم ، وخلفه خلفاؤه في حراسة الدين وسياسة الدنيا ، وهم امراء للمؤمنين ، وعن ثالثهم عثمان بن عفان انتقلت الى معاوية لتتسلسل في الامويين في المشرق حتى مروان بن محمد ، ومنه انتقلت الى عبد الرحمن الداخل في الاندلس ، وتوارثها بعده الامراء والخلفاء الامويون حتى هشام المؤيد بالله ، والذي حدثت الفتنة في عهده واعلن موته خلالها اكثر من مرة .

حاول اغلب حكام الطوائف ، من الجيل الاول ، الاعتماد على اساس شرعي في حكمهم ، فلم يتخذوا القابا سلطانية واكتفوا بالقابهم السابقة ، كلقب القاضي ، او اتخذوا لقب حاجب وادعوا انهم يحكمون باسم خليفة ، كما فعل زعماء المغاربة من بني زيري حين بايعوا خليفة مغربيا من بني حمود وادعوا ان هشاما المؤيد ، آخر الخلفاء الامويين ، تنازل له . ورد خصومهم العباديون من العرب الاندلسيين ، بالادعاء بان هشاما المؤيد حي وانهم عثروا عليه وبايعوه . لكن اخرين مثل اسماعيل بن ذي النون صاحب طليطلة ، لم يعترف بامامة الامويين قائلا : « والله لو نازعني هذا السلطان الصديق لقاتلته عليه ، فكيف اسلم سلطاني لمن يدعى اليه من بني امية ممن لا يوجب الله طاعتهم ، عترة مروان خبط باطل ، الذين لم تسبق لهم صحة ولا ادخلهم السلف في شورى الامامة » ثم نفى فكرة حصر الخلافة بقريش قائلا : « توارثوا هذه هذه الامامة ممزقة وصنعتها قريش لاستعباد الناس ، والناس لام واب والفخار باطل » (١) ثم تجاوز هذه الفكرة ليقول بعدم وجود اساس شرعي للسلطة وانها مبنية على القوة وذلك بقوله « احق الناس بالملك من استقل به ، والله لو نازعني فلان وفلان (ذكر هنا اسماء بعض السلف الصالح الذين كرم الله ذكرهم) لضربتهم دونه بسيقي » .

ساد هذا الوضع تجاه النظرة للسلطة حتى اواسط القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، اي عدة عقود من السنين . واتى بعد ذلك جيل اخر من ملوك الطوائف رأى ان يحكم دون غطاء شرعي او واجهة ، حتى ان ملكي الدولتين الحاميتين للخلفاء من امويين وحموديين ، قاما بعملية الغاء الخلافة فاعلن ابن عباد موت هشام ، وقضى باديس الحمودي على اخر الحموديين ، واستخلص منه قاعدته مدينة مالقة (٢) . واصبحت نظرية اسماعيل بن ذي النون القائلة « احق الناس بالملك من استقل به » هي السائدة ، وعبرت القاب ملوك الطوائف انذاك عن هذا الواقع الجديد اذ كانت كالقاب الخلفاء العظام ، وخاصة العباسيين ، مثل منصور ومامون ومعتمد ومعتمد ومتوكل . وزاد البعض على ذلك فلم يعد يكفي بلقب واحد بل تعداه الى لقبين ، وهو امر لم تكن له سابقة ، الا من الخليفة الاندلسي الاول عبد الرحمن الثالث ، موحد الاندلس وباسط سلطانه على شمال شبه الجزيرة اليبيرية ، واجزاء واسعة من المغرب ، الذي تسمى بلقبين ، لكنه تعفف عن استخدامهما معا في الداخل ، فاكفى بلقب الناصر ، بينما كانت كتبه الخارجية تضيف اليه لقب القائم ايضا . (٣) اما ملوك الطوائف فقد استخدموا اللقبين معا في الداخل وضربوهما على النقد . وهكذا لقب يحيى بن ذي النون ملك طليطلة نفسه « المامون ذو المجدين » ولقب محمد ابن عباد ملك اشبيلية نفسه

« المعتمد على الله ، المؤيد بالله » لكن احدا من ملوك الطوائف لم يتجرا على تقلد لقب الخلفاء الشرعيين الرسمي وهو امير المؤمنين ومع ذلك فقد رأى الكثيرون من الناس ان التابهم التي اتخذوها وهي القاب خلفاء عظام ، اكبر منهم بكثير . وبالتالي فهم صغار ينفخون انفسهم ليصبحوا كبارا . وقد عبر عن ذلك احد الشعراء بالقول :

مما يزهدني في ارض اندلس اسماء معتضد فيها ومعتمد
القاب مملكة في غير دولتها كالر يحكي انتفاخا صولة الاسد

سلطة ملوك الطوائف في واقعها الفعلي

مهما يكن من شأن الاساس النظري لسلطة ملوك الطوائف ، فانهم مارسوا هذه السلطة فعليا ، واستبدوا بها الى حد يمكننا من اعتبارها مطلقة ، وذلك منذ الايام الاولى لنشوء دولتهم ، ومن ناحية اخرى اعتبروا دولهم ملكا شخصيا لهم يورثونه بمشيئتهم كتوريثهم العقارات والاملاك الخاصة ، كما فعل سليمان ابن هود في الثغر الاعلى ، عندما قسم مملكته بين اولاده الخمسة . وعلى شاكلته ورث المظفر ابن الافطس حاضرتي دولته بطليوس وبابرة الى ولديه ، فاخص كل منهما بواحدة . ومثله ايضا فعل باديس فخص حفيدا له بعاصمته غرناطة ، وحفيدا اخر بمالقة . وحتى عندما كانت الدولة مدينة واحدة قرقطبة حصل التقسيم ايضا ، ولكن بمهام الدولة ، فقسم ابو الوليد جهور نواحي ادارتها بين ولديه . وعندما لا يفعل الملك ذلك كان ورثته يعتقدون ان من حقهم الاقتسام ، كما حصل عندما سمى اسماعيل ابن ذي النون خلفا واحدا له ، وهو يحيى المامون فنازعه على الامر عمه واخوه . وربما كان الاستثناء الوحيد لذلك دولة العبايين . حيث تم التوارث لكامل للدولة من الاب الى ابن واحد فقط .

وفي مجال الادارة لم يبدع ملوك الطوائف شيئا ولم يبتكروا جديدا ، بل ساروا على نبط الادارة الموروثة من عصر الخلافة . ومع ذلك لم يتقنها منهم الا البعض ممن مارسوها سابقا في عهد الخلفاء ، كبنى عباد وبنى جهور . وما عدا هؤلاء ، كان بعض الملوك غفلا من كل معرفة ، فاستعانوا باداريين متفهمين في الادارة الاموية كي يشرفوا على تنظيم ادارتهم ، وهذا ما فعله العبد سابور حاكم بطليوس ، والعبدان مبارك والمظفر حاكما بلنسية ، وكانت هذه الادارة مرتبطة بالامير مباشرة ، الا في الدول التي سيطرت فيها قوة عشائرية غريبة على حواضر كبرى . فقد جعل بنو ذي النون ادارة طليطلة بيد فقهاء كبار منها كابن الحديدي

وابن الفرج وترك الفتيان الصقالبة ادارة مرسية لفيها ابن طاهر . اما غرناطة عاصمة بني زيري الصنهاجيين ، والتي كانت نسبة كبيرة من سكانها من اليهود ، فقد عهد بشؤونها خلال امد طويل لاب ثم لابنه من هؤلاء . وعندما ضم الزيريون لدولتهم الحاضرة الكبيرة ايضا مالقة ، جعلت رسميا تحت سيادة بلقين ابن ملك الدولة . لكنه قام ببناء على توصية والده باسناد شؤونها الى فقيه منها هو محمد ابن الحسن النباهي ، الذي اعتبر وزيرا وقاضيا ، ومنح امتيازات مالية وردت في كتاب رسمي جاء فيه « هذا ما التزمه واعتقد العمل والوفاء به بلقين ابن باديس للوزير القاضي ابي عبد الله محمد بن الحسن واعتقد به اقراره على خطة القضاء والوزارة في جميع كورة رية (مالقة) وان يجري من الترفيع به ، والاكرام له ، الى اقصى غاية ، وان يجري على الحرية في جميع املاكه حاضرتها وباديتها الموروثة منه والمكتسبة ، القديمة الاكتساب والحديثة ، وما ابتاع منها من العالي (خليفة حمودي) وغيره لا يلزمها وظيف بوجه ولا يكلف عنها كلفة على حال ، وان يجري في قرانته وخوله وحاشيته وعامري ضياعه ، على المحافظة والبر والحرية » (٤) وصفوة القول ان سلطة ملوك الطوائف في الاندلس كانت تفتقد على الصعيد النظري الدعم الشرعي والمعنوي ، كما كانت تفتقر على الصعيد العملي الى اللحمة والتماسك ، ويزداد التمزق فيها والانحلال مع تقدم الزمن ، وكذلك عجزها عن كسب ولاء قطاع عريض من الناس او تثبيت ولاء القطاع الضيق ، بمن فيه ابناء الاسرة المالكية وكبار موظفيها ، كما يبدو ذلك واضحا في احوال دولتي بني عباد وبني زيري .

مصادر القوة البشرية والاقتصادية في مجتمع الطوائف

اعتمد ملوك الطوائف عند قيام دولتهم على دعم معين ، لامتد قصير جدا ، ورشما تتمكن دولهم من الوقوف على قدميها ، وتباين هذا الدعم بتباين طبيعة الدولة ، وزعامتها ، فكان في بعضها مشيخة البلد ، واتباعهم فيها ، وفي بعضها الاخر عصبية العائلة او العشيرة ، وفي دول اخرى ، كدولة خيران العامري الاولى ، فلول متعددة من جند وصعاليك . لكن استبداد الملوك ، وحروبهم ضد بعضهم بعضا ، جعلهم يستبعدون هذه الدعائم ويستبدلون بها دعامة من الجند المرتزقة والعبيد .

وكان هؤلاء الجنود من عناصر متعددة ، يأتي في مقدمتها بنو برزال من زنانة ، ويكاد الاعتماد عليهم يكون عاما لدى كل الدويلات ، وخاصة في الجنوب . وقد وصف ابن حيان دورهم بقوله « فطال العجب عندنا بقرطبة وغيرها من طنعاليك قليل عددهم . متقطع مددهم اقتسموا قواعد الارض في وقت منا مضربين بين ملوكهمسا ، راعمين في كلثا باقرين عن فلذتها ، حلوا محل الملح في الطعام بياسهم الشديد ،

وقاموا مقام الغولاذ في الحديد ، فلا يقاتل الاعداء الا بهم ولا تعمّر الارض الا في جوارهم : فطائفة عند ابن الافطس تقاوم اصحابها قبل ابن عباد ، وطائفة عندنا بقرطبة تحيز اهلها عن الاضداد ، فسبحان الذي اظهرهم ومكن لهم الى وقت وميعاد (٥) ووصلت شهرتهم في الحرب والاقبال على استخدامهم ، لدرجة ان بني زيري الصنهاجيين ملوك غرناطة واصحاب الثارت مع زنانة عموما ، ومع بني برزال بوجه خاص ، في المغرب قبل الوصول الى الاندلس ، استعانوا بهم ايضا ، كما يقول الامير عبد الله الزيري « وزاد جاه الناية واستخص بني برزال واحسن اليهم وقربهم من نفسه ، وهم كانوا اولياءه وانصاره » (٦) . كما استخدم السودان من قبل الفتيان الصقالبة العامريين رغم انهم جنود ، ومن قبل الزيريين ايضا ، وكانوا اوفياء لهؤلاء الاخيرين . ففي الواقعة بين الفتى زهير صاحب المرية وبين الزيريين غدر سودان الصقلبي بسيدهم ، كما يورد صاحب الذخيرة القول : « سودان زهير غدوره اول وهلة واتقلبوا مع صنهاجة وليست بالبدع من افعالهم وكانوا قطعة خشنه يقاربون خمسمائة » (٧) وعندما هاجم العباديون مالقة ، انفرد السودان بالدفاع عن قضية سيدهم الزيري ، ولاذوا بالقصبة عند سقوط المدينة ، حيث استمروا في المقاومة ريثما وصلت امداد سيدهم (٨) . كما كان بين هؤلاء الجند مرتزقة من الاسبان او غيرهم من الاوروبيين ، وقد ورد في وصف ابن حيان لجيش ابن ذي النون الموجه لاحتلال قرطبة « اذ جمع الجيش ذا الالوف المختلفة الالسنه » (٩) وفي مكان اخر يصف اجناده بانهم « ذوو السنه شتى وبطارق اعزة يعرب عنهم التراجمة » اما الاندلسيون فقد بعد عهدهم بالجنديّة والجيش ، منذ ابعادهم التدريجي الذي بلغ ذروته في عهد العامريين ، ومع ذلك كانوا يخشدون في وقت الخطر الشديد وقد برز عجزهم واضحا خليا ، وقتل الالوف منهم في الحروب التي جرت بين ملوك الطوائف ، او بين بعضهم وبين الاسبان . ومن امثلة هذه الحالات ما قام به ابن الافطس بعد هزيمة له امام ابن عباد ، في صراعهما على مدينة يابرة اذ جمع لمواجهة خصمه فلول جيشه المهزوم ، واخرج معهم « كل من قدر على ركوب ذابة من البياض ببلده وحشر رجال البوادي بعمله خلقا كثيرا » . لكن الهزيمة حلت بابن الافطس ثانية ولم يغن عنه هؤلاء شيئا ، وكانت الضحايا منهم كثيرة ، حتى ان راوية ثقة لابن حيان افاده بان « بطليوس بقيت مدة خالية الدكاكين والاسواق من استئصال القتل لاهلها » (١٠) وربما نجمت كثرة القتل من كون اكثرهم غير فرسان ، وبالتالي عاجزين عن الفرار السريع ، كما فعل الجنود . وقد لقي عامة الاندلسيين مصيرا مشابها في الشغل الاعلى ، وكذلك في موقعة بطرنة على مقربة من بلنسية ، عند مهاجمة فرناندو الاول لها .

اما اعداد هؤلاء الجند المعتمد عليهم فلا يمكن التعرف عليها بدقة في غياب

الاحصاءات ، وللتطورات التي كانت تطرأ عليها في كل دولة ، انما يمكن التوصل لاستنتاجات عامة من خلال الارقام التي يوردها مؤرخون ثقات ، او رجال دولة لعدد جنود دولة ما ، وذلك في معرض الحديث عن احدي المعارك . فيذكر الامير عبد الله الزيري في معرض حديثه عن هجوم تحالف من الصقالبة والاندلسيين ضد بني قومه الزيريين ، بعدما جمعوا كل قواتهم فبلغت عدتها اربعة الاف ، وجابههم بنو زيري باقل من الف (١١) وعلى الرغم مما قد يكون في الارقام من مبالغة نحو الاكثار من عدد الاعداء والتقليل من عدد ابناء القوم لتضخيم حجم الانتصار ، فإن النتيجة بالنسبة لنا لاتتغير كثيرا ، وهي ان اكبر جيش جمع في الاندلس في الفترة الاولى لقيام دول الطوائف لايزيد عدده عن خمسة الاف . ومن الطبيعي ان يكون عدد الجند في جيش كل طائفة من الطوائف اقل من ذلك بكثير ، حتى ان جيش ابن ذي النون الذي جهد في جمعه كي يظفر بقرطبة ، امنيته الغالية ، والذي وصفه المؤرخون المعاصرون بانه متعدد الالسنه ويحتاج الى تراجمة ليعربوا عن كلام البطارقة فيه ، هذا الجيش يمكننا تقدير عدده من ملاحظة عدد الجند المعادين الذين ما ان تكامل وصولهم للميدان ، حتى انسحب دون قتال ، وكان هؤلاء لايزيدون عن مائتي جندي من قرطبة ، رفدتهم نجدة من ابن عباد تتكون من مقدمة في ثلاثمائة فارس ، ثم جدد في اثرهم الف فارس (١٢) .

ويظهر ان اعداد الجند كانت تقل بمرور الزمن في عصر الطوائف ، وخاصة لدى الدول الممزقة ، كدولة بني زيري ، فالاخوان عبد الله صاحب غرناطة وافي الحشد الاسلامي قبيل الزلافة في ثلاثمائة فارس ، واخوه تميم من مالقة في نحو مائتين (١٣) . وفي بعض الدول ذات الموارد الضعيفة ، كدولة بني جهور في قرطبة ، اضيف الى قلة العدد ، وهي مائتا جندي ، انهيار الهيكل التنظيمي للجيش ، لدرجة ان روايتهم لم تكن مدفوعة ، ومؤنهم غير محفوظة او مؤمنة ، كما يستفاد من ابن حيان وهو المؤرخ الثقة والشاهد العيان لذلك من داخل الدولة والذي يصف عملية حشدهم وتمبئتهم للمعركة بقوله : « فما ان تاتمت عدتهم مائتي فارس ، اكثرهم مسوقون ، حاقدون ، معوقون ، مستقصرون ، يشتري لهم القوت من السوق مضيقا على رعيته ، ويزدلف بهم في غد ايامهم ، ويعدهم ثواب عاجل الطعن نسيئة على مستأخر النصر » .

لذلك يمكن القول ان كثيرا مما يسمى بجيوش ملوك الطوائف كانت اقرب الى العصابات منها الى الجيوش المنظمة ، وربما كان الاستثناء الوحيد لذلك جند العباديين ، الذين يرتقون الى مرتبة جيش ، اذ ظهر لديهم الاختصاص فكان منهم مختصون باعمال الحصار ظهر عملهم عند احتلال شلب ، فقد دخلوها عنوة بعد

هدم سورها بالمجانيق من جهة ، ونقبه من جهة . كما كان لدى العباديين — اسطولهم الحربي الذي شارك في الاعمال الحربية مثل دخول الجزيرة الخضراء وتهديد مالقة ، وفي اواخر ايام دولتهم لبوا دعوة يوسف بن تاشفين لمساعدته في احتلال سبتة بقواتهم البحرية وشاركوا بسفينة حربية ضخمة كان لها اثر كبير في اخضاع المدينة . وقد وصف ابن بسام هذه السفينة بأسلوبه الادبي قائلا : « انشا المعتمد سفينة ضاهى بها مصانع الملوك القاهرين بعد العهد بمثلها شدة اسر ، وسعة بطن وظهر ، كأنما بناها على الماء صرحا ممردا واخذ بها على الريح ميثاقا مؤكدا » (١٤) .

هذا الواقع ، للجيش التي اعتمد عليها ملوك الطوائف في اقامة عروشهم ، اثر على الباحثين النظريين ، واخرج نظرياتهم منسجمة مع هذا الواقع . ومثال ذلك ابو بكر الطرطوش ، صاحب سراج الملوك الذي عاش في هذه الفترة ضمن دولة بني هود في الثغر الاعلى ، التي شابه حالها حال دول الطوائف الاخرى ، وتستعين بفارس اسباني هو السيد لدعم عرشها . ولابي بكر هذا نظرية في قيام الدولة وانتصارها مخالفة تماما لرأي ابن خلدون ، الذي يجعلها العصبية في حين يجعل هو عامل قيام الدولة عدد الجند المسجلين في ديوانها ، ويعتبر سبب انتصارها توفر عدد من الشجعان داخل جيشها . وربما انتصر جيش بوجود ستة الى ثمانية ابطال لان كل واحد يقوم بجيش كامل (١٥) .

نتيجة لما مر ، يمكننا القول بان قوة كل دولة من دول الطوائف تتناسب مع قدرتها المالية ، لان هؤلاء المرتزقة ، كانوا يتقاضون اجورهم دنائير ذهبية ، كما يفهم مما يورده مؤرخ العصر ابن حيان في معرض حديثه على استخدام بني برزال كجند ، قائلا : « خلطوا الشر بين رؤسائها واستخرجوا ما اظهروه من دنائيرهم وخلصهم وجاحوا (استأصلوا) ذات ايديهم وعلموهم كيف تؤكل الكتيف » . وربما يفسر ذلك غنى بني برزال بالذهب ، حتى انهم عندما انشأوا دولة لهم في قرمونة سکوا عملة ذهبية بوفرة ، مما جعل التعامل بها يشيع في الاندلس .

وقد توافر لكل دولة من دول الطوائف الكبيرة مورد مالي كان اساس بقائها حتى نهاية العصر . ويتمثل هذا الوارد بانتاج زراعي او معدني في الغالب ، يتحول الى مال عبر المتاجرة به ضمن دائرة اقتصاد شبه الجزيرة الايبيرية ، او بتصديره الى خارجها ، كما هو حال قطن اشبيلية وزئبق طليطلة ، وكتان غرناطة وحريرها .

وقد ادت الحروب بين هذه الدول الى اضعاف القوة الاقتصادية لـ

الاندلس ككل . فالحاصلات الزراعية كانت تدمر لعدة سنوات متتالية بسبب الغارات ، التي تمنع في الوقت نفسه الانتقال والمتاجرة بين المناطق ، مما اضعف الدورة التجارية داخل شبه الجزيرة ، وجعل المواني ، التي تعتمد على التجارة الخارجية ، تشهد ازدهارا نسبيا ، بالمقارنة مع مدن الداخل . وتقدم بلنسية ودانية مثلا على ذلك ، والواضح منه مدينة المرية ، فقد تزايد عدد سكانها الى حد جعل داخل اسواها يضيق بهم ، فتكون لها ربض واسع قام خيران العامري باحاطته بسور (١٦) ، وفي ذلك مايفكس نشاط الفعاليات الاقتصادية فيها ، والتي يرد وصفها في زمن المرابطين الذي تلا حكم الطوائف ويعتبر صادقا بالنسبة لهذه الفترة وفيه « كان بها من الصناعات كل غريبة ، وكان بها من طراز الحرير ثمانمائة طراز وتعمل بها الحلل والديباغ والسقلاطون والاصبهاني والجرجاني والستور المكلفة . وكانت فيما تقدم يصنع بها آلات النحاس والحديد ما لا يحصى . كما ان مراكب التجار تقصدها من الاسكندرية والشام وفيها الف فندق الا ثلاثين فندقا » .

وتوفر لدول اخرى ، كدولة بني عباد ، سبيل الاتصال التجاري ، مع السلامة النسبية للسهول الغنية ، اضافة لغناها في المواد التي تعتبر حربية . وهكذا كانت فيها منطقة الشرف التي تمتد من اشبيلية الى لبلة بطول اربعين وعرض اثني عشر ميلا ، ويوجد فيها القطن الذي يعم بلاد الاندلس ويتجهز به التجار الى افريقيا وسجلماصة (بوابة تجارة الذهب) وما والاها . وكذلك الزيتون الذي يتجهز بزيتته الى المغرب والمشرق برا وبحرا . وفي الدلتا التي تتشكل عند مصب نهرها تتكون جزر تربي فيها الدواب لان الكلا دائم والمكان امين من الغارات . وفي مواني اخرى ضمنها ، كمدينة شلب ، يتوفر في جبالها الخشب وفي ميناء آخر الحديد ، مما جعلها قادرة على صناعة سفن وصل عدد قطعها اخر الامر حوالي ثمانين قطعة (١٧) . وربما يكمن في هذا كله تفسير تطور هذه الدولة الى اقوى دول الطوائف ، حيث استطاعت ان تسيطر على منطقة واسعة ممتدة من الاطلسي غربا الى المتوسط شرقا .

عناصر مجتمع الطوائف وعصبياته :

تميزت في المجتمع الاندلسي ، منذ نهاية عصر الخلافة وبداية الفتنة ، ثلاثة عناصر رئيسية وهي : العنصر الاندلسي ، ويشكل الاغلبية وعامة الناس ، ثم المغاربة ، او البربر ، بفرعهم صنهاجة وزناتة . اما العنصر الثالث فهو الصقالبة ، وعرف افراده بالفتيان العامريين او الفتيان الصقالبة . انقلب العنصران الاخيران في عهد الطوائف الى عنصرين حاكمين للعديد من المناطق ، وخاصة في الشرق والجنوب ، واقتصر حكم ابناء العنصر الاندلسي على بعض المناطق . وقد نشأ صدام بين هذه

العناصر منذ اواخر ايام الخلافة ، وادى الى انهيارها في خضم الفتنة ، التي كانت مجابهة حربية فيما بينها ، ثم استمر قويا بعدها في عصر الطوائف لعدة عقود من السنين ، قبل ان يتفسخ تدريجيا داخل كل عصبية . وتكثر الشواهد والظواهر على اثر هذه العصبيات العنصرية في سلوك الجميع ، من ناحية تقارب أهلها وعملهم سويا في مواجهة العصبيات الاخرى . يبرز منها في شرق الاندلس عصبية الصقلية المعادية للمغاربة وللعرب الاندلسيين . وقد ركز بعضهم ، قبل ان يلوا في الاندلس حكما ، على تبيان فضل عنصرهم وتفوقه ، فألف حبيب الصقلي ، أحد فتیان الامويين ، كتابا يتعصب فيه لقومه وسماه (الاستظهار والمغالبة على من انكر فضل الصقلية) . وتهيأ لهم خلال حكمهم او ممارستهم للسيادة ، أن يمارسوا على من حكموهم من الاندلسيين سياسة التمييز لعنصرهم ، واضطهاد الآخرين على الصعيد العملي . فكان الفتیان الصقليان مبارك والمظفر ، حاكما بلنسية ، حسب قول ابن حيان « يحثان الرعية بسلطانهما ، ولا يعبان بما آذاها من كلفهما ، يقلدانها شرار العمال (الموظفين الماليين) ويستزidan عليها في الوظائف (المغارم والضرائب) الثقال ، مع الايام والليال ، حتى لغدا كثير منهم يلبسون الجلود والحصر ويأكلون البقل والحشيش وفر أكثرهم عن قراهم . . . وصارا يتخذان ما جلا عنه أهله من تلك القرى ضياعا مستخلصة ، فاذا وقع عليها اسم كبير منهم راجع أهلها راضين عنه بالاعتماد بالسهم راجين في دفاعه من الحداث » (١٨) .

ولم يقتصر اذاهم على من وقع تحت حكمهم ، بل شجعوا هرب بني جنسهم من العبيد في المناطق الاخرى فقد « لحق بهم موالى المسلمين ومن أجناس الصقلب والافرنج والبشكنش عشيرتهم . . . وانفتح على المسلمين ببلاد الاندلس امر شديد في اباقة العبيد اذ نزع اليهم كل شريد طريد وكل عاق مشاق » .

وفي مدينة دانية وجزر البليار ، حكم الصقلي مجاهد العامري ، الذي اشتهر بتشجيعه للعلم والادب ، مما جعل صورته لدى بعض المؤرخين العرب المسلمين المتأخرين عن زمنه ، كالمراكشي صاحب المعجب . لكنه من ناحية التعامل مع العرب المسلمين لم يكن اخف وطاة من الحاكمين السابقين ، فقد كان ، حسب ما يقتبسه عنه ابن الخطيب : « شديد الوطاة على رعيته ، سام أهل الجزائر الخسف ، فسطا بوجوههم ورؤسائهم ، والزم قلوبهم الرهب ، لما خافهم على دولته ، بغريب من التعبد والسياسة ، حتى لقد حظر عليهم رماكهم السامية ، وكانت عمدة أموالهم ، فكتبها منعوتة ، فلا تكاد الرمكة تنبج مهرا ، حتى يكتب على ربه بنعته ويلزمه تربيته والقيام عليه الى أن يصلح ، فيقبض منه عند ذلك ويعطى خمسة دنانير دراهم ، لا يزيد عليها في وقت ، ولا يبرأ منه ان نفق الا ببراءة من ثقته ، وقد قطع اذن رجل لقطعه اذن مهر طلب التشويه بخلقه » (١٩) .

ويزودنا الجغرافي ابن حوقل بمعلومات اضافية عن هذه الدواب التي تنبج في الجزر ، وهي بغال من نوع خاص يختلف عن غيره لأنها ، حسب قوله « تبدن وتصنع وتنجب » ، كما ان الطلب عليها كثير في مجتمع الاندلس اذ أنه « قل سوق يصير اليه اهله الا على الفاره من المركوب ، ولا يعرف فيهم المشي الا اهل الصنائع والارذال » وقد يختص ركوبهم بالبغال الغره التي تجلب من جزيرة ميورقة وبها يتفاخرون ويتكاثرون . أما عن ثمنها : فيقول ابن حوقل : « رأيت فيها غير بغل بيع بخمسائة دينار فاما ما يبلغ المائة والمائتي دينار فأكثر من أن يحصى » (٢٠) .

وزاد مجاهد على من سبقه بتشجيع الهجوم على العرب فكرا ، اذ قرب اليه عددا من الشعوبيين . وقد عاش في بلاطة اللغوي المشهور ابن سيده ، صاحب معجم المخصص ، الذي رقت فيه كلمات العربية على اساس الموضوعات ، وجاء عنه في سير النبلاء انه كان شعوبيا يفضل العجم على العرب . واذا كان هذا قد خدم العربية وهاجم العرب ، الا ان مجاهدا سبى صبيا صغيرا من البشكنش ، عرف بابن غرسية ، وقربه اليه واشرف على تربيته في جميع المجالات ، واعطت هذه التربية اشهر ثمرة لها ، متمثلة في رسالة له او مؤلف صغير ، عرف برسالة ابن غرسية في الشعوبية ، التي تفتقر الى الابداع ، لانها تقتصر على ترديد أفكار الحركة الشعوبية في المشرق ، والتي تركز على ذكر عيوب حياة العرب في الجاهلية ، من حقارة ملابسهم ومساكنهم واختلاط انسابهم وافتقارهم لاي مجد سياسي أو فكري . لكن المهم فيها الدلالة على اتجاه صاحبها ، ونشر هذه الافكار بعد جمعها على نطاق واسع في الاندلس ، وقد زادت شهرة الرسالة لكثرة من زد عليها من الكتاب الاندلسيين المشهورين (٢١) .

اما الاندلسيون فكان كرههم للعصبيات الغريبة الحاكمة لهم يدفعهم للتطلع نحو سيادة حكام منهم . وأوضح مثل على ذلك مالقة ، التي خضعت للمغاربة الزيريين وابن عباد على مقربة منهم في الجزيرة ، ومع شهرته في مجال القسوة ، الا انهم كانوا ، حسب رواية الوراق « اذ جرى ذكر عباد المعتضد ارتجوا له ورفعوا أصواتهم بالثناء عليه ، هذا ما كانت أعينهم تقضى من قبح آثاره ويصك سمعهم من هول أخباره ، ويلفح وجوههم من شرر ناره ، تشيعا لم يكن له أصل الا شؤم الحمية ولوم العصبية » (٢٢) ولم تكن عصبة باديس ضد الاندلسيين أقل من ذلك ، اذ عندما بلغه ما حصل للملك المغربي صاحب كورة تاكرنا ، من قيام أحد أفراد رعيته الاندلسية عليه ، بالتواطؤ مع ابن عباد ، مما أدى الى مقتله سنة ٥٧ هـ ، أصبح باديس في حالة حداد من هجر شرابه والابتعاد عن ملاذه ، ودبر أمر الانتقام من الاندلسيين في بلده انتقاما وخشية من قيامهم بالشئ ذاته ، ودبر مذبة لهم عند تجمعهم لصلاه

الجمعة (٢٣) . لكن الوزير ، الذي كان على يقين ان في العملية قصر نظر سيودي بالدولة ، دبر اتصلا سريا بالناس كي لا يأتوا في اليوم المحدد لصلاة الجمعة ، ليتجنبوا المذبحة ، ويمكن بعدها ان تهدأ أثرة باديس ويعود الى رشده .

لكن تقدم الزمن بدويلات الطوائف وما حدث خلاله من مستجدات ، أدى الى حدوث تفسخ في كل عصبية من داخلها ودفعا للخلف في مجال الاهتمام .

وبدأت بالتبلور صورة تناقض أخرى في المجتمع الاندلسي ، وهو التناقض بين الرعية والملوك ، ولعل أبرز هذه المستجدات توطن الدول ، وما يتعلق بذلك من ظروف داخلية وخارجية .

فعندما تشكلت للعصبية الواحدة دول عدة ، أصبحت مصلحة الدولة المنشأة لحساب اسرة او عشيرة او قبيلة ، تتقدم على غيرها . وهكذا لم تمنع العصبية المغربية او البربرية بني برزال من التحالف مع العباديين ، زعماء العصبية العربية ، كما ان العصبية العربية لم تمنع العباديين من الاجهاز على دويلات عرب اقحاح . واخذ تمزق العصبية يتعمق ليطال عصبية العشيرة الواحدة ، وهكذا كان المرتزقة البرزاليون عمدة جند عدة دول متصارعة متقاتلة ، أي أنهم يقتلون بعضهم بعضا . وفي دولة العشيرة الزيرية بدأ الصراع بين صاحب الدولة ، الذي يريد الاستبداد بالحكم ، وبين وجوه عشيرته ، الذين يريدون البقاء شركاء له في الحكم والسلطة . ولعل المثل البارز على ضعف العصبية ، في العشيرة والاسرة ، لجوء ملوك الطوائف الى الاعتماد على أشخاص بعيدين عن سائر درجات عصبية الحاكم ، بحيث يكونون بعيدين اما دينيا ، أو موطنيا . ويعبر عن هذا الاتجاه لدى ملوك الطوائف بشكل صريح الامير عبد الله ، في معرض شرحه لبررات جده باديس في الاعتماد على ابن النغريلة اليهودي ، وذلك بقوله : « استعمله لذلك استيحاشا من غيره ، ولما كان يرى من طلب ابن عمه له (الحكم) ، ولان هذا يهودي ذمي لا تشره نفسه الى ولاية ، ولا هو اندلسي فيبقى منه ادخال داخله مع غير جنسه من السلاطين » (٢٤) . ونجد امثلة على السلوك نفسه لدى الملوك الآخرين الذين اعتمدوا على العبيد ، فقد عين ابن الافطس لثغر قلمرية الهام عبدا من عبيده يسمى (رانده) ، لم يجد بينه وبين البلد ما يصله به ويدفعه لتعريض حياته للخطر من أجله . فعندما هاجم الاسبان بلده ، اتفق معهم سرا على انتقاله اليهم مقابل الامان له ولاهله ، وانتقل الى معسكرهم ليلا ، تاركا المدينة لمصيرها ولاهلها دون قائد (٢٥) .

من ناحية أخرى كان قائد جيش ابن عباد الداخل الى قرطبة يسمى محمد بن

مارتين . وكان احد قواده ، الذي تأمر مع ابنه للاطاحة به ، عبدا يسمى (الناية) هرب الى خصمه باديس عند كشف المعتضد العبادي للمؤامرة وقتل ابنه (٢٦) . وقد يكون هؤلاء المقربون من المستعربين ، المعروف ولاؤهم ، كفتة ، للملك الاسبان ، مثل (شيشلاند Cisnando Davidez) ، الذي كان يعيش في اراضي ابن الافطس على مقربة من قلمرية ، واسره المعتضد بن عباد في احدى غاراته ، ولم يلبث ان اصبح من اقرب المقربين اليه سواء في شؤون السلم أو الحرب ، الا انه لم يلبث ان هرب الى فرناندو الاول ملك ليون ، واصبح واحدا من الكونتات المحيطين به ، واستخدمه في سفاراته الى ملوك الطوائف (٢٧) .

ادى هذا التفسخ في العصبية الى بروز تناقض اجتماعي من نوع طبقي ، هو ذلك القائم بين الملوك والرعية ، وقد جمع بين عناصر كل فئة قواسم مشتركة ، كما ظهرت لديهم على التوالي مصالح مشتركة أيضا .

طبقة الملوك

طبع سلوك هذه الطبقة بطابع الانطلاق من المصلحة الذاتية دون اعتبار كبير لقيم اخرى ، من الانتماء لعصبية أو اوامر الدين ونواهي ، بشكل دقيق . ومن هذا المنطلق دفعت الجزية للملك الاسبان رغم التحريم الشرعي لذلك ، واهتمت باحاطة اشخاصها بهالة من التضخيم والتمجيد . ومن هنا جاء استقدامها للعلماء وسخاؤها على الشعراء .

وكذلك برز اهتمامها بالعمران ، وهو امر معروف لدى أمراء الاندلس وملوكها منذ قيام الدولة الاموية . لكن ملوك الطوائف اختلفوا عن هؤلاء في انواع المباني ، اذ لم يعبروا اهتماما كبيرا للابنية الدينية ، كما فعل الامراء والخلفاء الذين كان من نتائج فعلهم بناء مسجد قرطبة وتوسيعه الدائم ، اضافة الى مساجد الاحياء الكثيرة . اما الان فقد حل مكان ذلك اهتمام يتناسب مع الحاجات ، وهي حماية الملك وتحقيق الترف له . وبذلك ازدهر العمران الحربي وعمران القصور . وتمثل البناء الحربي ببناء اسوار المدن والحصون . وقد كان الاهتمام بتحصين المدن في السابق منصبا على مدن الثغور ، في حين ساد الاتجاه في عصر الخلافة نحو تهديم الموجود منها من الداخل حتى لا يحتمي به الثائرون . اما ملوك الطوائف فقام كل منهم باحاطة حاضرتهم بأسوار ، وخاصة اذا كان ممن يتعرضون للهجوم .

كانت البداية بغرناطة ، عندما جعلها الزيريون قاعدتهم . وجدد بنوا الافطس

عام ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م سور بطليوس وجملوه من الحجارة والكلس بعدما كان من التراب . واحاط العبدان مبارك والمظفر بلنسية بسور ، وكذلك فعل اصحاب قرمونة (٢٨) .

وبنيت ايضا الحصون باعداد كبيرة خارج المدن لاغراض الدفاع والهجوم ، ومنها ما يبنى في اماكن مناسبة لحماية طريق يؤدي الى الحاضرة ، ويزود بكميات من الغذاء ، تكفي محاربيه امدا طويلا ، كي يقاوموا الحصار الطويل ، فيقوم المهاجمون ردا على ذلك ببناء حصن في مقابل الحصن المحاصر ، كي يستطيع مقاتلتهم البقاء فيه شتاء وصيفا . وقد يبنى حصن المهاجمين كقاعدة انطلاق يشنون منها الغارات على سهول الخصم الغنية ، كما فعل العباديون عندما بنوا حصن بليش ، على بعد بريد من غرناطة . وقام الزيريون خلال مهاجمتهم لبني صمادح ببناء سبعة حصون . ومن ناحية ثانية ساد اتجاه اخر لبناء وتحسين القصبات ، التي تقام في مكان مرتفع داخل المدينة وبجوارها ، وفي هذه الفترة اشتهر العمل في قصبه المرية . ومن المعلوم ان القصبات مقرر للحكم ، وبالتالي فقد اصبحت ضرورية للصمود في وجه اية انتفاضة داخل المدينة .

اما بناء القصور ، فان الحديث عن نشاط ملوك الطوائف في هذا الميدان يحتل مساحات اوسع على صفحات كتب المؤرخين المعاصرين . فالقصر علامة من علامات السلطان والسيادة ، ومن البدهي ان يكون لكل ملك قصر على الاقل . لكن المؤرخين اهتموا بوصف ما بدا لهم من القصور رائعا ومتميزا ، ولذلك تتكرر في اوصافهم عبارات تنم عن ذلك ، مثل « تحار فيه الابصار » و « ما لا يقدر واصف على وصفه » . ومن الامثلة على ذلك ، ما بناه ابو يحيى محمد بن معن بن صمادح ملك المرية ، اذ بنى في مدينته قصرا كبيرا ما بين الجبل والشاطئ ، احتوى على بستان فيه من جميع الثمار وغريبها ، واعدة دور يشرف الجالس في بعضها على الميناء ويشهد السفن غادية وآتية ، وكل منها يسمى مجلس افخمها دار الحكم . اما العناصر المعمارية فيه فالارض من الرخام ، والاقواس مقرنصة والنقوش والزخرفة استخدمت فيها المواد الثمينة ، ومن ضمنها الذهب الخالص (٢٩) . ولعل اكمل الصور التي يوردها المؤرخون دلالة على البذخ في التزيينات المعمارية لدى ملوك الطوائف ، صورة المجلس المكرم في قصر المأمون بن ذي النون ، الذي يقدمها لنا ابن حيان نقلا عن أحد اصدقائه من الادباء ، الذين حضروا حفلا في القصر ، ثم استقبلهم الملك في هذا المجلس . ومما يقوله هذا الاديب ، ان لهذا المجلس ازاد من المرمم خرمت في جثمانه صور البهائم واطيار واشجار ذات ثمار ، ثم يلي هذا الازار نحو الاعلى ازار اخر من التزيينات

الكتابية ، وهي عبارة عن اشعار في مدح المأمون . اما الازار الاعلى فكان من نفيس الزجاج الملون ، وقد وضعت عليه اشكال حيوان واطيار واشجار فوق أرضية من الذهب . وبهذه الدار بحيرتان نصبت على أركانها تماثيل أسود مصنوعة من الذهب ، ينساب الماء من افواهها الى حوض رخام محفور عليه صور احياء ، من حيوان واشجار ، وغرست في كل حوض شجرة فضة يترقى الماء فيها ثم ينصب من رؤوس الاغصان الصغرى على شكل رذاذ المطر أو رشاش التندية ، اما بقيته فتتدفق من ذروة الشجرة على شكل شلال (٣٠) .

واحتوت هذه القصور المترفة في تزييناتها ، على تحف ونفائس لا علاقة لها بالبناء ، واهمها تلك النفائس المصنوعة من المعادن والمواد الثمينة ، ومنها الانية الثمينة ، وتكثر الامثلة على النوع الاول عند المعتمد بن عباد ، عند الحديث عن وصف الشعراء لهذه الطرائف الملوكية ، مثل وصف فيل الفضة الذي يقذف الماء على البركة ، وتمثال لحجل من البلور ، عيناه ياقوتتان ، وقد ملئ بنفائس الدر (٣١) .

وكانت الانية من المعدن الثمين ماثلة في القصور ، وقد سخر المأمون بن يحيى ابن ذي النون من ترك والده لاكوام الفضة التي كان يملكها ، والتي ملأت مجلسا بكامله ، على شكل نقر (قطع) . وعندما عرض الفقهاء حوله صواب رأي أبيه من انه اتخذها كذلك للاستعانة بها عند الحاجة ، وانها ان صيغت واصبحت تحفا يراها الجميع ويزيد الملك الاسباني طمعا بها ، لم يقنع برأيهم ، ونفذ ما يريد ، فجعلها صنوفا كثيرة « من الحلية الرائعة والانية الفائقة ، اذ لا معنى في ابقائها نقر ، لانها تكون بالحجارة اشبه منها بالآلات الامارة » (٣٢) .

شابه هذا البذخ في زخرفة البناء واتخاذ التحف النفيسة ، البذخ في النفقة داخل القصور أيضا . وقد اشتهر تحقيق المعتمد بن عباد للرميكية نزوتها بأن تحيا مرة ثانية ، ولامد ، شيئا من حياتها السابقة ، فتسيخ قدمها في الطين عندما تملأ جرتها ، فأعاد خلق الجو لها ، لكنه جعل الطين من معجون الكافور والعنبر . ولم يكن ابن ذي النون بأقل منه بذخا في الحفلات ، ويكفي وصف مراحل غسل اليدين بعد الاكل ، في الحفل الذي أقامه بمناسبة اعداد حفيدة ، « ولما فرغت تلك الطائفة ، جيء بهم الى المجلس المرسوم لوضوئهم ، وقد فرش ايضا بوطاء الوشي المرقوم بالذهب وعلقت فيه ستور مثقلة متمالة ، فاخلوا مجلسهم فيه ، وناولهم الوصفاء الطائفون بهم رفيع النقاوات والذرائر المطيبات في الاقداح والاشناندانات الفضيات المحكمة الصناعات ، ثم ادني اليهم اثر ذلك الوضوء في اباريق الفضة المحكمة الصنعة ، يصبون على ايديهم في طسوس الفضة الماثلة . . فاستوعبوا الوضوء ،

وادنيت من ايديهم مناديل تتضاءل لها ما عليهم من سني الكسوة . ثم نقلوا الى مجلس التطيب ، فشرع في تطيبهم من مجاهر الفضة البديعة بفلق العود الهندي ، المشوبة بقطع العنبر الفستقي ، بعد ان نديت اعراض ثيابهم بشايب الورد الجوري ، يصب فوق رؤوسهم من اواني الزجاج المجدود وفياشات البلور المحفورة ، ثم ادني اليهم قوارير الما المحكمة الصنعة ، الرائقة الهيئة ، قد اترعت بالفوالي الذاكية ، النامة بسرها قبل الخبرة ، المتخذة من خالص المسك التبتى ، ومحض العنبر المغربي ، لأم بينهما رشح البان البرمكي « (٣٣) » .

هذا البذخ والترف ، اضافة لسد الضرورات في البناء الحربي ، وتهيئة المال لشراء العبيد واستئجار الجند ودفع الجزية للامراء الاسبان ، احتاج الى مبالغ كبيرة من المال فرضت على الرعية ، التي كانت تنكب بين الحين والحين بالغارات ، وما يتبعها من انتساف زروع ونهب مواش . وكان ما يفرض على الرعية يتخذ اشكالا شتى من الضرائب والمغارم يعددها ابن حزم بعد مقارنتها بما كان الناس يدفعونه سابقا بقوله « والمغارم التي كان يقبضها السلاطين ، فانما كانت على الارضين خاصة فكانت تقرب مما فرض عمر على الارض . واما اليوم فانما هي جزية على رؤوس المسلمين يسمونها بالقطيعة ، ويؤدونها مشاهرة ، وضريبة على اموالهم من الغنم والبقر والدواب والنحل ، يرسم على كل رأس ، وعلى كل خلية شيء ما . وقبالات ما يؤدى على كل ما يباع في الاسواق » . واضاف ملوك الطوائف شيئا اخر ، وهو احتكارهم للبضائع الثمينة في كل بلد ، كقيام زيربي غرناطة باحتكار نسبة من انتاج الكتان ، المادة الثمينة ، وقيام الصقالبة في دولة دانية والجزر باحتكار انواع من الدواب .

ويبدو وكان الاحتكار قد شمل كل ما هو ثمين ولدى الدول كلها ، ففي مدينة شنترين الخاضعة لابن الافطس تنسج حلل غالية الثمن ونادرة ، وقد احاطها الاهالي بأسطورة تقول : « ان دابة تخرج من البحر هناك وتحثك بحجارة على ساحل البحر ، فيسقط منها وبرة على لون الذهب وليس الخز ، وهي قليلة عزيزة جدا ، فيجمعها الناس وتنسج منها الثياب وتزيد قيمة الثوب منها على الف دينار لحسنه وعزته » لكن الملوك يحجرون عليها ولا تنقل من بلادهم الا بالخفية (٣٤) .

الرعية :

يعتبر الجميع بعد الملوك رعية ، لان استبداد الملوك ابعد اخر الامر حتى الاقربين . وتباين وضع هذه الرعية بالنسبة للملوك ، اذ قربوا منها من تدعو الحاجة اليه ،

وارتبطت بالتالي مصالحته بمصلحتهم . ويأتي في مقدمة هؤلاء الشعراء والعلماء والمهرة في صناعات العمران والتحف والحلي . فقد عرف عن المأمون بن ذى النون البطش ، لكنه كان يقف من عريف البناء عنده موقفا أقرب الى موقف المستعطف ، فقد اظهر غيظه عندما اخلف هذا وعده بالانجاز ، ولما احضر بين يديه كتم غيظه واطهر المداراة له ، حتى قبل هذا ان ينجز المجلس المطلوب في عيد تال يجري فيه المأمون استقباله (٣٥) . وطلب العبدان مبارك والمظفر ، حسب قول ابن حيان « فاخر الاسلحة والالات ونفائس الحلي فطار اليهم عريف كل صناعة ورئيس » (٣٦) .

وكانت عطايا الملوك تساعد البعض على الخلاص من العسر ، بينما تؤمن لآخرين حياة رافهة ، فمن قدموا على العبدین السابقين مبارك والمظفر وخدموهما ، شاركوهما في الترف ايضا . واشتمل « هذا الترف على جميع اصحابهما ومن تعلق بهما من وزرائهما وكتائبهما . فاحتدوا فعلهما ، في تفخيم البناء وتهافتوا منه في ترهات مضلة ، وتكشفوا في اشغال متصلة ، لاهين عما كانت فيه الامة يومئذ . واتسع الخرق في عظيم ذلك الانفاق ، فمنهم من قدرت نفقته على منزلة مائة الف دينار واقل منها وفوقها » . ويمثل هذا تناقضا صارخا مع وضع رعية البلد التي اصبح العيش والبقل مأكولا لها ، والجلود والحصر ملبسا . ولم يكن هذا الوضع قاصرا على بلنسية بل كان عاما على ما يبدو ، اذ يورد الجغرافي الغدري ، وهو معاصر ، عن بلده المرية التي شهدت ازدهارا كبيرا في هذه الفترة ، انه « احصى بمدينة المرية في تفرقة بعض الصدقات من الضعفاء وعلى يد قاضيها موسى بن احمد المرسى ، فوجد فيها وفي ارباضها عشرون الف ضعيف » (٣٧) ، وهو رقم كبير اذا تذكرنا ان عدد سكان الاندلس وفيها عشرات المدن مثل المرية لا يزيد على خمسة الى ستة ملايين نسمة .

وتزعم سواد الناس ، او ما تبقى من الرعية ، الفقهاء . وزعامتهم في المدن تقليدية تعود الى الفترة الاولى لقيام الدولة ، وقد كونوا الان مركز ثقل لهيمنتهم على كتل بشرية ضخمة ، خاصة وان عامة المدن قد تكاثرت بفعل الهجرة من الارياف خشية الهجمات والغارات . لذلك سعى الملوك لتقريب كبار الفقهاء ، اما بترك حكم المدينة بيدهم ، او باعنائهم من المغارم كما مر معنا . وهذه الوسيلة في التقريب ليست فقط اتقاء لشركهم ، بل لجعل قياد العامة سلسا لينا ، وتسهيل قبولها لما يفرض عليها من مغارم ، عن طريق ايجاد المبرر الشرعي ، كما قال أحد الفقهاء للامير عبد الله « فانك لو شئت ان تأخذ من أحد درهما بغير التاموس لسمع عند الناس ، واذا اخذت الفاعل وجه الحق حل لك اخذه ولم يستبشعه أحد » (٣٨) .

لكن استجلاب الجميع كان غير ممكن ، اما بسبب المنافسة بين الفقهاء ، كما حصل في طليطلة ، حيث قرب ابن الحديدي وابن الفرج ، فنفر الفقهاء من بني مغيث

وبني اللورانكي . كما ان بعض الفقهاء ، كانوا من التقى بحيث لا يسكتون على باطل ، ففي اشبيلية كان الفقيه أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني ، أحد رجال المشيخة ، وغادر بلده بعد ذلك خشية بطش المعتضد به ، لمكانته بين الناس . فزار المشرق واخذ العلم ، واستأذن المعتضد بعد ذلك بنزول مرسية . وعندما حصلت حادثة بشتير واهتزت لها الاندلس بعث اليه برسالة يحثه على الجهاد ، فظهر المعتضد الموافقة واستدرجه الى البلد أولا ، ثم الى القصر بعد ذلك ، حيث قتله بيديه (٣٩) . وفي سرقسطة وعظ فقيه اخر المقتدر ، بعدم جواز دفع الجزية للاسبان اعداء الدين ، فكان جزاؤه القتل ، كي يكون عبرة لغيره فلا يتطاول احد على سياسة الملوك (٤٠) . وكان جزاء البعض ممن لم يجابهه مجابهة صريحة النفي ، كما فعل باديس بابن القليبي ، الفقيه الغرناطي . وكذلك كان حال ابن حزم الذي سجن في عدة بلاطات ثم ابعد عنها ، الا انه لم يقتل رغم هجومه الصارخ على ملوك الطوائف ، حتى انه جعل منهم كفرة ، اذ انه ، بعد عرضه للمغارم التي يفرضونها ، يقول : يقدمون ايضا « على اباحة بيع الخمر من المسلمين في بعض البلاد ، وهذا كله ما يقبض المتغلبون اليوم ، وهذا هو هتك الاستار وتقض شرائع الاسلام وحل عراه عروة عروة ، واحداث دين جديد والنحل من الله عز وجل » . وفي مكان آخر يأتي تكفيره لهم علنا « ان كل مدبر مدينة ، او حصن في شيء من اندلسنا هذه اولها عن اخرها ، يحارب الله تعالى ورسوله وساع في الارض بفساد ، والذي ترونه عيانا من شتمهم الغارات على اموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارهم واباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي يعصون على اهلها ، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين يسلطون اليهود على قوارع طرق المسلمين في اخذ الجزية والضريبة من اهل الاسلام معتبرون بضرورة لا تبيح ما حرمة الله ، غرضهم فيها استدامة نفاذ امرهم وتهميم » . ويمكن للمرء ان يفترض ان نجاته من القتل كانت بسبب عدم تعرضه لملك من الملوك بالذات ، او ربما لكونه ظاهري المذهب مخالف للاكثرية ، مما يحد من تأثير اقواله وتحريضاته . او قد يكون لتعرض جميع الفقهاء له ومحاربتهم ايما بالكلمة لانه كفرهم ايضا ولم يكتف بتكفير الملوك ، وذلك بقوله : « فلا تفالطوا انفسكم ، ولا يفرنكم الفساق والمنتسبون الى الفقه ، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع المزيفون لاهل الشر شرهم الناصرون لهم على فسقهم » (٤١) .

وقد يجمع هذه الاصناف من الفقهاء كونهم من وجوه الناس ، اما من كانوا من الضعفاء فمنهم من غادر الى المغرب حيث قويت دولة المرابطين ، وهي دولة فقهاء تساس امورها حسب الشرع ، مثل عبد الرحمن بن اسباط وكان فقيرا « يتحرف بالنسخ ولم يكن حسن الخط ولا فصيحاً ، وعندما ارتقت حاله قليلا أصبح أحد الكتاب في باب الديوان بالمرية ومن هذا العمل انتقل الى المغرب ودخل في خدمة المرابطين » (٤٢) .

ومنهم من كان طامحا للشهرة والمال فسلك درب الموالة للملوك انما في ثوب واعظ ، والمثل الكبير على هذا الطراز من الفقهاء هو سليمان بن خلف الباجي ، الذي كان فقيرا لكنه سافر للمشرق طلبا للعلم ، حيث عمل ببغداد حارس درب ، وكان يستفيد باجارته على ثقفته وبضوئه على مطالعته ، ثم ورد الاندلس وهو في عسر مادي فصار يتولى ضرب ورق الذهب للفزل ، حتى انه كان يخرج لتلاميذه وفي يديه اثر المطرقة وصدا العمل . وربما قربه الملوك بعدما ثبت لهم نفعه من خلال تصديه لابن حزم ، اذ كان عنده من الاتقان والتحقيق والمعرفة بطرق الجدل والمناظرة ما مكنه من احراج ابن حزم وفضحه في نظر المالكيين ، فقدمت له الوظائف والعطايا وتنقل بين البلاطات ، بحجة اصلاح ذات البين بين الملوك وتوحيد كلمتهم . لكن اتهام الناس له وتركيزهم على كيفية اتساع وتوفر كسبه وقبول جوائز الملوك ، يدل على اعتبار الناس له من الفقهاء الذين ضمهم الملوك الى جانبهم (٤٣) .

وبدا الامر ميثوسا منه ، وزعامة الرعية بين خاضع ومقتول او منفي او خائف . وقد عبر المؤرخ المعاصر للاحداث ، وهو ابن حيان ، عن الوضع بما يدل على قدرته على تحليل القوى الفاعلة في الاندلس ، وشعوره باليأس ، وذلك من خلال تعليقه على سقوط بشتير « وطرق الناعى بها قرطبة في شهر رمضان فصك الاسماع واطار الافئدة » ، وزلزل ارض الاندلس قاطبة ، وصار للناس شغلا تسكعوا في التحدث به والسؤال عنه والتصور لحلول مثله اياما ، ولم يفارقوا ذلك عاداتهم من استبعاد الوجل ، والافتراء بالاجل والاستناد الى امراء الفرقة الهمل ، الذين هم بين فشل ووكل ، فيصدوهم عن سواء السبيل ويلبسون عليهم واضح الدليل . ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا في صنفين منهم ، هم كالملاح فيهم : الامراء والفقهاء . . . بصلاحيهم يصلحون وبفسادهم يردون ، فقد خص الله سبحانه هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج هذين الصنفين لدينا بما لا كفاء له ولا مخلص منه . فالامراء القاسطون قد تكبوا عن نهج الطريق زيادا عن الجماعة وجريا الى الفرقة . والفقهاء ائمتهم صموت عنهم ، صدف عما اكده الله عليهم من التبيين لهم ، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم وخابط في أهوائهم وبين مستشعر مخافتهم اخذ بالتقية في صدقهم . فما القول في ارض فسد ملحها الذي هو المصلح لجميع اغذيتها . هل هي الا مشقية على بوارها واستئصالها « (٤٤) .

ضعف الحمية الدينية لدى قطاع واسع من الاندلسيين

رغم كون الدين رابطة تربط الجميع ، وتجاوز انقساماتهم العرقية والاجتماعية ، الا ان ضعف الحمية الدينية لدى قطاع واسع من الاندلسيين ، اضافة للوهم ،

أفقد هذا العامل الموحد الكثير من تأثيره وفعاليته ، وكان لهذا الوضع جذوره البعيدة ، إذ أن المجتمع الأندلسي متعدد الأديان ، وكانت أعداد من بقي على دينه من الأسبان كبيرة ، لفتت نظر الرحالة ابن حوقل في الجنوب ، كما جذب انتباهه قوة شوكتهم « وبالاندلس غير ضيعة فيها الألوف من الناس لم تمدن ، وهم على دين النصرانية روم وربما عصوا في بعض الاوقات ولجأ بعضهم الى حصن فطال جهادهم ، لانهم في غاية العتو والتمرد . وإذا خلعوا ربقة الطاعة صعب ردهم الا باستئصالهم » (٤٥) ومن المعروف ان لهم استقلالاً داخلياً ويرأسهم قوامستهم ، ومتى عصى أحد قادتهم كان يعطي شروطاً متسامحة كي يعود الى ربقة الطاعة . وقد اعطي لاحدهم عهد بأن يحتفظ بكل ما لديه من مال ونساء ، وصادف أن احدى امائه كانت مسلمة وشكت الى القاضي الذي حاول ان يحكم بما يوجبه الشرع ، لكن حاجب الخليفة تدخل وطلب الحفاظ على عهد الخليفة (٤٦) .

من ناحية اخرى ، كان التسامح في التعايش واضحاً في كل المجالات ، خاصة بعد ما تم الامتزاج بين الطرفين ، وبدا وكأن جزءاً كبيراً من التناقض بينهما قد حل ، وأصبحت تجمع بينهما لغتان مشتركتان ، العربية لغة الثقافة للجميع ، والرومانس لغة الشارع . والسيادة للأمراء أو الخلفاء العرب المسلمين . كذلك كان الاختلاط في البيت كبيراً ، بسبب الزواج من الأسبانيات منذ البداية واستمرار تفضيل الجوّاري منهن على غيرهن من سائر أصناف الجوّاري . وهذا ما جعل عادات الأسبان الاجتماعية تسيطر لحد ما ، فقد كان الجميع يحتفلون بالفصح وبرأس السنة الميلادية رغم مواعظ وتحذيرات الفقهاء ، كما ان التزاوج ادى ، بعد اجيال ، الى فقدان التمايز في الملامح الجسدية ، حتى ان ابن حزم يلاحظ ان الاسرة الاموية الحاكمة يغلب عليها لون الشقرة (٤٧) . ومن الطبيعي في ظل هذه الاوضاع كلها الا يتولد عند العرب الأندلسيين ، خاصة وانهم السادة ، نوع من الحمية ضد الأسبان تقوم بدور العصبية الجامعة .

وعندما اتقلب ميزان القوى لم تتكون هذه العصبية ايضاً ، لان الامراء الأسبان لم يدخلوا كغزاة أول الامر بل كمساعدين لفريق ضد آخر . وكان من الممكن ان يؤدي الاختلاط بالجنود الأسبان ، وما قد يقومون به من أعمال تؤذي مشاعر المسلمين ، الى إثارة حمتهم . الا أن هذا حصل في وقت كانت فيه العصبية بين أندلسيين ومغاربة تهيم على المشاعر ، الى حد بدت معها الحمية الدينية في منتهى الضعف ، رغم استفزازها . فقد قام أحد الجند الذين قدموا لمساعدة القرطبيين ضد المغاربة بالتعرض للمقدسات الاسلامية بالشتم والاهانة فلم يكلمه أحد ، فقام رجل من المسلمين غير النبي الا تنكرون ما تسمعون ، اما انتم مسلمون ؟ فقال له جماعة منهم : امض لشغلك (٤٨) .

وعندما ظهر الخطر الاسباني مهددا ، وبدأت المدن بالسقوط ، كان رد الفعل وظهور الحمية الدينية مقتصرًا على صيحات البعض . وبقي الملوك لا مباليين ، وكل ما في سلوكهم لا يشير لحمية دينية أو محاولة الظهور بمظهر الخاضع لأوامر الدين ونواهيهم ، وبقوا منهمكين في الملذات التي يتطرفون في بعضها باستخدام رخص الدين ويخالفونه في بعضها .

فقد استكثروا من الجواري ، وتباروا فيما بينهم بالحصول على أرقاهن حتى اشتهرت أسماء بعضهن ، واصبحت اعلامًا تتردد في كتابات المؤرخين . ففي ٤٤٢ هـ ورد رسول للمظفر بن الافطس الى قرطبة يلتمس شراء وصائف ملهيات لسيدته ، وكان قد عدمن بقرطبة يومئذ ، فوجد له صبيتين ملهيتين عند بعض التجار لا طائل فيهما فما اشتراهما . وكان خصمه المعتضد أكثر توفيقًا منه ، إذ سعى لاجتلاب قينة الرميحي ، الوزير في قرطبة بعد وفاته . وقد استدعاها لما وصفت له بالخدمة (٤٩) .

واشتهر أحد ملوك الطوائف الصغار ، وهو أحد ملوك بني زين أصحاب شنتمرية الشرق ، « بأنه أرفع الملوك همة في اكتساب الآلات واقتناء القينات ، اشترى جارية الطبيب الكناني بثلاثة آلاف دينار . وطبقت شهرة هذه الجارية الاندلس ، لأن ابن حيان يخصصها بما يشبه الترجمة عن محاسنها النفسية والجسدية ، ومهارتها في ألعاب الفروسية ، إضافة الى معارفها الواسعة في اللغة والخط والنحو والطب والتشريع (٥٠) .

ولكن أهم مظاهر مخالفة أوامر الدين هي شرب الخمر علناً ، وحتى اعتبار البعض له شيئاً عادياً ، من ذلك أن الأمير عبد الله الزيري ، الذي يبدو عليه التدين أكثر من غيره لا يتحرج من ذكر أقبال جده باديس على الشراب ضمن جملة أعماله ، ويتحدث عن دعوة والده الى شراب بنفس الصيغة التي يتحدث بها عن دعوته الى طعام . كما أن المأمون بن ذي النون ، المعروف بوقاره ، خصص مائدة خاصة للشاربين في حفل اعدار حفيده ، قدمت عليها أصناف طعام من نوع ملائم للشراب ، بترتيب في التقديم مناسب له أيضاً ، ثم شاركهم في الجلوس لسماع غناء مغن يهودي لايبسات حث فيها على طلب الشراب ، كمقدمة لمديحه ، وفيها بعض الفاظ لا تتناسب مع المعتقد الاسلامي السليم ومنها :

هدهاء العروس في السحر
تحرق ايدي السقاة بالشرر
مما قد محاه تصرف القدر
يطلع فيئنا بطلعة القمر (٥١)

باكر ل بكر الدنبان ان
واشرب عقارا تخال حمرتها
فان يحيى احيا بدولته
ملك هو الدهر في عزيمته

ويبدو من الناحية الاخرى ان الخلاعة قد انتشرت في صفوف نساء هذه الطبقة ايضا ، قياسا على ما كان يصدر عن السنة بعض بنات ملوكهم . فولادة المشهورة ابنة الخليفة المستكفي ، وهو من خلفاء الفتنة اشتهر بالتخث في المقام الاول ، نسب اليها من الاشعار الغزلية ، واشعار الهجاء لابن زيدون وغيره ، ما يعتبر بديشا بجميع المقاييس . ويعتبر مما قالته في الغزل المكشوف :

امكن عاشقي من صحن خدي واعطي قلتي من يشتهيها

شيئا مهذبا لما ورد عنها في الهجاء .

وربما كانت أم الكرام ، ابنة صاحب المرية ، اكثر تهديبا من ولادة قياسا لما حفظ عنها ، ويتعلق بغزل صريح للفتى المرسى مسمار ، كقولها (٥٢) :

يا معشر الناس الا فاعجبوا	مما جنته لوعة الحب
لولاه ، لم ينزل ببدر الدجا	من افقه العلوي للترب
حبي بمن أهواه لو أنه	فارقتني تابعه قلبي

* * *

المجتمع الاسباني

يقدم المجتمع الاسباني صورة مناقضة لصورة مجتمع الطوائف في جميع النواحي وعلى مختلف الصعد .

السير باتجاه توحيد السلطة :

كان عصر الطوائف عصر تجزئة السلطة في الواقع الفعلي ، وانعدام وجود اي رابط بين السلطات حتى ولو كان نظريا ، في حين قام في الشمال الاسباني اربع دول هي : ليون في الزاوية الشمالية الغربية ، وقشتالة الى الشرق والجنوب منها اي في المنطقة المحاذية لوسط الاندلس ، وما بين أعالي الضفة اليسرى لنهر ايبرو والبيرينييه وخليج غاسقونيا قامت دولة نافارا . اما في أقصى الشمال الشرقي من شبه الجزيرة فقد قامت كونتية برشلونة . ويتجلى السير نحو التوحيد ضمن هذه الممالك في هذه الفترة على مستويين ، في المجال النظري كان ملوك ليون يعتبرون انفسهم امتدادا للأسرة المالكة القوطية قبل الفتح الاسلامي . وفي مضمون هذا

الاعتبار ما يشير الى حقهم في حكم شبه الجزيرة الايبيرية كلها ، كما كان ملوك القوط . وازاء تعدد الدويلات الاسبانية اتخذ ملوك ليون لقب امبراطور ، وحتى باسيليوس ، سواء في وثائقهم الرسمية ، او تجاه رعاياهم ، او لدى ملوك الدويلات الاسبانية الاخرى .

اما على المستوى الفعلي والعملي ، فقد كانت الوراثة ، في هذه الفترة ، تؤدي في غالب الاحيان الى ضم التاج الواحد لاكثر من دولة ، وهكذا حكم كل من فرديناندو اولاً وابنه الفونسو السادس ، كلا من دولتي ليون وقشتالة منذ ١٠٣٨ م / ٤٣٠ هـ - ١١٠٩ م / ٥٠٣ هـ . (٥٣) .

القوى البشرية والاقتصادية

معروف ومشهور ان مهد الريكونيكيستا (حرب الاسترداد) ، او المنطقة التي بقي الاسبان يسيطرون عليها منذ ايام الفتح العربي الاسلامي ، كانت تلك الاوعار الجبلية ، الواقعة في الشمال الغربي من شبه الجزيرة الايبيرية . وكانت السهول التي تليها ، والتي تحجز بينهم وبين العرب المسلمين ، ارضا مهجورة . وعندما انحدروا من الجبال وانتشروا في هذه السهول تدريجيا ، مستفيدين من فترات الضعف التي تمر بها الامارة الاموية ، استطاعوا آخر الامر وخلال الحرب الاهلية التي عصفت بالاندلس اواخر عصر الامارة ان يصلوا الى حوض نهر دوبرة وقامت لهم عاصمة اصبحت مقر ملوكهم هي مدينة ليون . وقد اعمرت هذه الاراضي الواسعة باسبان ليسوا من النبلاء ، وانما من احرار بسطاء ، مهاجرين من المنطقة الجبلية ، او مستعربين فروا من الجنوب ، اما انفة من الخضوع للمسلمين ، او هربا من الحروب الاهلية التي حدثت اواخر عصر الامارة . وقد كان لهؤلاء نمط حياة ريفي ، وعاشوا ضمن تجمعات ريفية بسيطة ، تقوم حصون على اطراف بعضها وفي امكنة مناسبة لحماية التجمعات . وفي ظل بعضها كان العمران يمتد والتجمع يكبر ليصبح نواة لمدن صغيرة مثل لوغو ، وبرغشر وسمورة .

كان اقتصاد هذه التجمعات اقتصادا ريفيا ، قائما على الزراعة وتربية المواشي ومطبوعا بطابع الفقر الشديد ، اذ افتقرت الى مراكز اقطاعية كبيرة ، يمكن ان تكون بلاطات صغيرة بكل ما يتولد عنها من حاجات تدفع الى قيام اقتصاد متنوع الفعاليات ، من صناعة وتجارة . لهذا كانت صناعاتها محدودة جدا ، وقاصرة على توفير ضرورات الحياة ، عبر الصناعات المنزلية . كما ان دور التجارة فيها بلغ من الضالة حدا لم يستدع فيه سك عملة ، فاستخدموا ، كوحدة للتعامل ، مد

القمح او راس الغنم او قطعاً من الفضة . وبما ان بلادهم تقع بين منطقتين نشيطتين ضمن دائرة التجارة العالمية ، لذلك قام افراد من المنطقتين ، اي من الاندلس ، او من غاليا الكارولنجية ، بزيارات للمنطقة ، واوجدوا لها بالتالي هذا الرباط الدقيق والواهي بالتجارة العالمية ، والذي كان عبارة عن افراد من التجار اليهود او المستعربين . وقد بدا ملمح وحيد تقريبا للتطور ضمن هذه المنطقة التي تمتد من نهر دويرة جنوبا حتى قمم الكانتوبريك شمالا ، ومن المحيط الاطلسي غربا الى اراضي نافارا شرقا ، وهذا الملمح هو مدينة ليون ، السدة الملكية ، واجتذب هذا الموقع السياسي ، بتجمعه السكاني الكبير نسبيا ، والذي يتغذى من منتجات سهل فسيح حول المدينة ، بعض العناصر التي تمتن التجارة ، كالمستعربين ، الذين افتتح احدهم حانوتا ، وبعض اليهود الذين يتعاطون الربا ، وقام في ليون سوق اسبوعي عند قوس الملك حيث كان يتم التبادل بين الاغذية والموارد الطبيعية الاخرى ، والادوات المصنوعة . ودشن هذا النظام ما يسمى باقتصاد المدينة ، حيث تكون المدينة مع اطرافها دورة اقتصادية ، او وحدة اقتصادية مغلقة ، يتم ضمن اطارها انتاج الخيرات ، وتوزيعها ، او تبادلها واستهلاكها ، وربما بدا بالظهور في الفترة نفسها ، نمو مدينة اخرى في اقصى الشمال الغربي حيث ضريح شنت ياقب بسبب توافد الحجاج على زيارته من بقاع شتى ، الامر الذي يخلق تطورا في الفعاليات ، ومع ذلك لم يصل الى مستوى نمو مدينة ليون وتطورها . لكن مقارنة اكبر مركز حضاري في الدولة الاسبانية مع مراكز الحضارة في الاندلس يعكس لنا مقدار تدنيه . ويكفي لاجلاء صورة هذا التدني مقارنته بمدينة المرية الاحداث منه نشأة ، والتي يصف الجغرافي العذري المعاصر الطابع العام لها باستقبالها السفن من البلاد الاسلامية والاوربية ، وبدار صناعتها القديمة التي قسمت الى قسمين : القسم الاول وفيه المراكب الحربية والالة والعدة ، والقسم الثاني وفيه القيسارية ، قد رتب كل صناعة منها حسب ما يشكل لها . قد امن فيها التجار بأموالهم وقصد اليها الناس من اقطارهم (٥٤) .

تلا ذلك توسيع الحدود بعد دويرة نحو الجنوب باتجاه نهر التاجه ، بعد سقوط الخلافة الاموية وخلال فترة الفتنة . ونشأت في الارض الجديدة ، وبحذاء اراضي دول الطوائف ، تجمعات بشرية ، وبينها مجموعات عمرانية دفاعية على قمم المرتفعات او مداخل الاودية لحماية السهول والسيطرة على الطرق المؤدية لها . وازضافة لها انتشرت عدة كنائس متواضعة واديرة . اما نمط الحياة هنا ، فكان اكثر بدائية من وضع المجتمع وراء دويرة ، فالسكان هنا لا يستطيعون ان يكونوا زراعا ، بسبب سعة الارض التي وقعت بين ايديهم ، والتي تحتاج زراعتها الى ايد عاملة كثيرة ،

لذلك امتهنوا الرعي والحرب ، مما نمى الروح الحربية بين صفوفهم ، وهي ليست بالامر الجديد عليهم ، لانه لو كانت لهم صفات مناقضة لظلوا في جبالهم ومناطقهم البعيدة عن الحدود آمنين (٥٥) .

التنظيم الاجتماعي - السياسي :

كانت السيادة في هذا المجتمع مجزأة وفق النظام الاقطاعي ، ففي كل منطقة كانت السيادة لاحد الكونتات (conde) . ويمثل هؤلاء النبالة العليا ويتوارثون السيادة في اسرهم . وبذلك كانت سيادة الملك خارج قطاعه غير مباشرة ، وقاصرة على تبعية الكونتات له . وقد ادخل فرناندو الاول اصلاحا جديدا ، الفى بموجبه التوريث في ملكية الاقطاعات وادارتها ، فبدلا من ان تكون هذه موروثه ، اصبحت منحة ملكية يكون للممنوح له حق الانتفاع بها ، وممارسة السلطات الادارية والقضائية بها ، نيابة عن الملك . وقد اعتمد هذا الاصلاح على النبلاء من طبقة ادنى او الفرسان (Infanzones) بينما كان الكونتات ينتمون الى النبالة العليا (Hidalgos) . وقد تغيرت الالقاب للممنوح لهم فلم يعد كونت (Conde) وانما (Tenienté) او (Merino) بمعنى الوكيل او المسك او الخولي او الحاجب . ولم يقتصر هذا العمل على منح الاراضي الجديدة المكتسبة ، وانما اصاب القديمة ايضا ، وازيح بعض النبلاء من اقطاعاتهم ومنح النبلاء الصغار مناطق شاسعة (٥٦) .

وقد حصل في قشتالة اكبر تطوير لهذا النظام ، اذ زيد في عدد النبلاء الجدد او الفرسان هؤلاء ، ورفع عددهم فيها من ٣٠٠ الى ٦٠٠ (٥٧) .

وتمخض هذا النظام عن نتيجتين ، اولاهما تقوية السلطة الملكية ، والثانية زيادة المحاربين باعداد كبيرة ، لان الفارس او النبيل الصغير ليس جنديا فردا ، وانما يهرع للحرب مع اتباعه ، فهو بمثابة قائد لمجموعة من الجند . ومما لا ريب فيه ان هذا يخلق في وجه مجتمع الطوائف مجتمعا محاربا ومتماسكا ، مؤلفا من محاربين يرتبطون بسيدهم الملك ارتباطا وثيقا بفعل الاصلاح الجديد ، وبفعل الاعراف في النظام الاقطاعي التي تنظم العلاقة بين السيد والتابع ، في اطار واجبات متبادلة ذلك ان من واجبات التابع ان يخدم سيده ضد كل الناس سواء في الحرب ، او عندما يدعوه الى مجلس الملك (El Corte) او في المهمات التي يكلف بادائها .

ويمكن تجميد او وقف القيام بهذه الواجبات باذن يمنحه السيد ، ضمن نفوس معينة ، منها قيام التابع بتقبيل يده والاستئذان بالمفادرة ، واذا انقطع

التابع دون اذن ووداع يعتبر خائفا . ومن واجبات السيد اكرام التابع وحمايته من الاذى والاعتداء والاهانة ، وان يحيطه بضمانات امتيازاته القضائية ، كما عليه ان يسمى له بزواج نافع ماديا ، وان يعطيه مرتبا عند مرافقته للحرب ، وعند نهايتها عليه ان يقسم بين اتباعه اربعة اخماس الغنيمة (٥٨) . وفي هذا الواجب الاخير تأثير عربي واضح .

بساطة الحياة المادية والثقافية في البلاط وما حوله :

يمكن اكمال صورة الحياة في المجتمع الاسباني المعاصر للملك الطوائف اذا اضفنا لما ذكرناه عن نمط حياة هذا المجتمع ، صورة الحياة في طبقة العليا . فمن المعروف ان المعاصرين من الملوك الاسبان هما فرناندو الاول ، وبعده ابنه الفونسو السادس (الفنش) . وكان هذا هو الابن الثاني لابيه ، الا انه الاثير ، لذا عهد اليه عندقسمة املاكه بمملكة ليون . وهذا ما اثار عليه اخاه الثاني سانشو (شانجة) فوقعت عدة وقائع بين الاخوين انتهت باسر الفونسو ، ونفيه بتوسط اخته اوراكا التي تحبه ، الى مدينة طليطلة ، حيث قضى تسعة شهور من كانون الثاني الى تشرين الاول من عام ١٠٧٢ م ، حتى اغتيل اخوه وهو على حصار مدينة ليون الثائرة (٥٩) . فعاد الفونسو ليبسط سلطانه على كامل مملكة ابيه ويتابع سياسته .

كانت حياة بلاط هؤلاء ، بمقارنتها مع بلاطات ملوك الطوائف ، حياة تقشف اذ لم يكن لهم على ما يبدو ملابس متميزة ، لذلك جرت العادة ، منذ زمن ابيهما ، ان يرتدي الامير منهم ملابس المسلمين . وقد عاين ذلك أحد الكتاب من اصدقاء ابن حيان ، الذين خرجوا للتفاوض معه اثناء مروره بأراضي سرقسطة (٦٠) . اما الفونسو السادس غازي طليطلة فيقدم له ابن بسام وصفا في معرض ذكره لمقابلة وفد من طليطلة له فيقول : « وجعلوا ينظرون اليه وهو يضغط ثقامة راسه ، فما نسوا ذفر اظماره ودرن اظفاره » (٦١) . ورغم ان الصيغة ادبية قد يكون فيها مبالغة على حساب المعنى ، الا انها تدل على انطباعهم بقدارته ، خاصة اذا تذكرنا مفهوم النظافة والتنظيف لديهم وكما يظهر لنا من مراحل غسل الناس لايديهم بعد الطعام ، في حفلة اعذار حفيد ابن ذي النون .

وفي مجال الحياة الثقافية ، يذكر ميتيندث بيدال ان اكبر المكتبات لديهم كان فيها قرابة مائتي كتاب ، وهو امر يستدعي للذاكرة مكتبة الحكم ذات الاربعمائة الف مجلد وكون اكبر مكتبة لهم تحوي كتابا تعادل نصف ما كتبه ابن حزم ، المعاصر لهم . ويصبح التناقض صارخا اكثر ، اذا انتقلنا للمضمون ، فبينما حفلت مكتبات القصور

والافراد العرب المسلمين بالعلوم في شتى نواحي المعرفة ، نجد اكثر كتب هذه المكتبة دينيا ، ومن نوع كتب الطقوس والمواظ ، لا من كتب فلسفة العقيدة ومناقشتها . اما محتوياتها من مؤلفات الثقافة القديمة ، فقاصرة على كتب بعض الشعراء دون كتب الفلسفة ، وحتى هذه حوربت من الطريقة الديرية الكلونية ، التي بدا تأثيرها يتعظم في البلاط ، حتى ان احد كبار المصلحين فيها انتهى من تأملاته حول الشاعر فيرجيل الى نتيجة مفادها ان شعره جميل لكنه مثل كأس جميل يحتوي حشرات . لهذا استبعدت مؤلفات الكتاب غير الكنسيين من المكتبات الجديدة التي انشئت . واذا انتقلنا الى انتاج الفترة من مؤلفات تتشابه نوعا بين البلاطين ، ترى ان كل ما انتج في بلاط مملكة ليون في هذه الفترة في ميدان التاريخ لا يتعدى خمس عشرة صفحة ، كتبها سامبيرو ، كاتب الفونسو الخامس ، لتسجيل تاريخ (١١٦) سنة سابقة ، تميزت ، عدا عن ضالة الحجم ، بفقر شديد في المضمون ، اذ لم تحو الا معلومات عامة بصيغة ضبابية تذكر فيها احداثا مجردة من اطاري الزمان والمكان . بينما أرخ المؤرخ المعاصر ابن حيان لعصره الاقصر زمنا بكثير ، في ستين مجلدة ، يبدو فيها ، اضافة للصياغة الراقية الدقيقة ، توافر اكثر العناصر التي تتطلبها البحث التاريخي الحديث ، من تأمين المصدر المناسب ، حتى التفسير والتعليل .

يظهر الفارق نفسه ، اذا انتقلنا للعمارة والمجال الفني ، فاهم ما بناه هؤلاء في عاصمتهم ليون كان كاتدرائية سان خوان ، بناها الفونسو الخامس بالطين والاجر ، ثم جدد فرناندو الاول البناء وجعله من حجر . ومع ذلك فقد بقيت عبارة عن مبنى فقير جدا ، اذا ما قورن بالمسجد الجامع في قرطبة ، او بما بناه ملوك الطوائف من قصبات وقصور (٦٢) . في هذا الجو الذي يسوده التقشف والبساطة ، يبدو الحديث عن بلاط عامر بالترف واللو غير ممكن ، فساد لديهم الاهتمام بالحرب ، وكان فراغ فرناندو الاول يسد بمعاشرة الرهبان ، الذين كانت عشرتهم مبعثا لسروره ، وكذلك تلاوة الاناشيد الدينية معهم .

الريكونيكيستا (حرب الاسترداد) وتطبيقها .

انقلب البحر الابيض المتوسط لميدان صراع ، بعدما اتم العرب المسلمون فتوحاتهم اواخر القرن الاول للهجرة / اوائل القرن الثامن للميلاد ، وذلك بين العرب من جهة ، واوروبا المسيحية من جهة اخرى ، وقادته قوتان : الدول الجرمانية كقوة عسكرية ودنيوية ، والبابوية كقوة روحية وثقافية . وقدر لاسبانيا ان تكون ميدانا لتواجد ممثلي الطرفين واحتكاكهما (٦٣) .

وكان على العرب المسلمين في عصر الطوائف ان يجابهوا هجوما من الطرفين ، المحلي والاوربي . فالباوية كانت تنظر للصراع ضمن ميدانه الواسع ، الذي تدخل فيه اسبانيا . وهكذا قام البابا الكساندر الثاني عام ١٠٦٣ م / ٤٥٦ هـ ، اي قبل ثلاثين عاما من توجه اول حملة صليبية الى فلسطين ، بتقديم وعد بالخلاص من الخطايا والبراءة من الذنوب لكل من يشارك في حرب صليبية ضد العرب المسلمين في الاندلس . وتجمع جيش أغلبه من الفرنسيين والنورمانديين ، وانضم اليهم فرسان ايطاليون ، وبعض المحاربين الاسبان من مناطق الشمال (٦٤) ، وهاجم بريشتر فقاومت وجاربت المهاجمين في خارجها ، لكن تعرف هؤلاء على السرب الذي يدخل منه ماء النهر الى المدينة ، وسده ، جعل المدينة تعرض للاستسلام مقابل الامان للانفس ، فرفض الطلب . ثم دخل المهاجمون البلد عنوة وقتلوا من اهلها الافا ثم امروا الباقين بالخروج من المدينة ، وبعد ذلك تغير الامر ليصبح عودة كل واحد الى بيته ، فقسمت البيوت ومن فيها على المحاربين وتركت لكل منهم الحرية بان يفعل ما يشاء بمن وقعوا في حوزته . لم يكن هذا اول احتلال لبلد اندلسي . لكن كل ما حدث سابقا كان من قبل اسبان ينالون ما ينالون باتفاق مع صاحبه كثمن لمساعدة ، او انهم كانوا يتفقون مع طرف من اهلهم ، لكن هذا كان اول احتلال بهجوم من اغراب ، كما ان ما حصل فيه من اعمال شنيعة احدث ردة فعل عارمة في الاندلس كلها . وهذا ما يفسر تقاطر النجدات على المقتدر بن هود ، فاجتمع لديه جيش لم يعرف عصر الطوائف له مثيلا من قبل في العدة والعدد ، حتى قيل ان فيه ستة آلاف من الرماة العقارة . وتمثلت خطة الهجوم عليه بقيام الرماة بالرمي على السور تغطية لعمل الثقابين تحته ، والذين توصلوا لفتح الثغرة فيه ودخلوا منها وابادوا الحامية كلها تقريبا ، وكانت مكونة ، حسب قول ابن حيان ، من الف فارس واربعة آلاف راجل ، بعد ان بقي بايدي الروم قرابة سنة كاملة ، بدءا من جمادى الاولى ٤٥٧ هـ / اب ١٠٦٤ م (٦٥) .

اختلف التوسع الاسباني على حساب العرب المسلمين فيما يسمى بحرب الاسترداد ، عن التوسع الاوربي ، اذ لم يكونوا على وعي ظاهر بالبعد العالمي لصراعهم مع العرب المسلمين ، وانما كان البارز لديهم البعد الوطني او القومي ، المتمثل بايمانهم بان اسبانيا واحدة ، وتشمل شبه الجزيرة الايبيرية ، وانها كانت مسيحية كاثوليكية يحكمها القوط ، ويجب ان تعود الان لحكم ملوك ليون الذين اصبحوا منذ زمن يعتبرون انفسهم خلفاء للملوك القوط ، وفي اتخاذهم لقب امبراطور ، اي رئيس ملوك شبه الجزيرة ، تعبير عن ذلك . وقد ظلوا يكررون الفكرة ذاتها سواء زمن فرناندو الاول او ابنه الفونسو السادس ، فقال الاول لوفد من اهل طليطلة « انما

نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديما في أول امركم ، فقد سكنتموها ما قضي لكم وقد نصرنا الان عليكم برداءكم فارحلوا الى عدوتكم ، واتركوا لنا بلادنا ، فلا خير لكم في سكتاكم معنا بعد اليوم » وقال مبعوث الفونسو كلاما في نفس المعنى للامير عبد الله « انما كانت الاندلس للروم في أول الامر حتى غلبهم العرب » (٦٦) .

ولم يكن الاسترداد في نظرهم هدفا مثاليا بل هدفا يحقق لهم غنى ماديا ، لان ما بيدهم من الجزيرة حسب قول سفير الفونسو السادس هو ان (العرب الحقوهم بأبخس البقاع جليقية) . كما ان نفوسهم شرهت للذهب والمعدن الثمين والنفائس . وكان العرب يدركون ذلك ، بدليل نصح بعضهم للمأمون بن ذى النون بالا يحول مقر القضة لديه الى آنية ثمينة خشية رؤية الجليقيين لها واثارة طمعهم .

اما من الطرف الاخر ، فقد كشف ذلك حتى لعامتهم ، اذ ان القرطبيين اول الفتنة استأجروا اسبانيا لمساعدتهم ضد المفاربة مقابل ذهب ، فكان الفارس ينال ، عدا شرابه وطعامه ، دينارين في اليوم . وينال القومس أو القائد مائة دينار . وعندما شكأ أهل طليطلة لفرناندو عجزهم عن تقديم ما يطلبه من مال ، كان جوابه « لو كشفت سقوف بيوتكم لبرقت ذهبا » .

من ناحية ثانية كانوا يرون ان الساعة لتحقيق مطمحهم قد أزفت ، اذ زالت هالة المجد والقوة والتقدم ، التي كانت تحيط بالعرب المسلمين في اذهانهم ، بعدما اختلطوا بهم . وقد قال أحد رؤساء الجند لدى أهل قرطبة « كنا نظن ان الدين والشجاعة والحق عند أهل قرطبة واذا القوم لا دين لهم ولا شجاعة فيهم ولا عقول معهم ، وان ما اتفق لهم من الظهور والنصر كان بفضل ملوكهم ، فلما ذهبوا انكشف أمرهم » (٦٧) . كما ان الحالة الحربية لجند الطوائف كما رأينا كانت معروفة لهم وللعرب المسلمين أيضا ، حتى قال ابن حيان « وصب الله تعالى على أهل الثغور من الجبن عن العدو ما لا كفاء له ، فلا يكاد احد منهم يلقي نصرانيا في قرار من الارض الا ويوليه الدبر ، غير مستحي من الله من الفرار امامه ، حتى تعود أعداء الله ذلك منهم » (٦٨) .

رغم ذلك لم ير الملك الاسباني الاكتساح المباشر والاجهاز على حكم الملوك العرب المسلمين كما فعلت الغزوة الصليبية ، بل كان اعمق من اولئك بكثير لمعرفته باوضاع شبه الجزيرة ، ولمعرفته بأحوال العرب المسلمين من الداخل ، بفضل ما توافر له من معارف عبر مداخلات بني قومه معهم ، وعبر الاشخاص الذين انتقلوا لخدمته من بلاطات ملوك الطوائف ، مثل شيشلاند . لذلك كانت له خطة عامة لتحقيق الهدف ، او خطة استراتيجية كما نقول في عصرنا الحديث ، وخطط مرحلية ،

تقوم الاولى على اساس انه من غير المجدي الاكتساح ، بسبب الفقر السكاني في المناطق الاسبانية ، اذ ان الهجوم المباشر يفني الرجال والاموال ، واذا احتل البلاد وابقى سكانها فهو لا يأمن خضوعهم ، واذا طردهم لم يجد من يعمر الارض . لذلك كانت خطته العامة ان يخضعهم للجزية ويضرب بعضهم ببعض فيفتقرون ويضعفون ، ويفنى هو ويقوى . وما بين الحين والاخر ينهك جزء من بلادهم فيلقي بنفسه دون قتال أو تعب ، ويكون قادرا على هضمه وابتلاعه .

ليست لخطة المذكورة ، العامة او المرحلية ، من استنتاج مؤرخ حديث ، بعد استقراء الحوادث وسلوك الفونسو السادس ، وانما ذكرها الامير عبد الله المشارك في الاحداث ، الذي يؤكد بدوره ان هذا ليس استنتاجا منه ، وانما كانت سياسة مقررة في بلاط الملك الاسباني ، بعد مداوات مع رجاله ، لذلك يقول الامير « كنا نعلم هذا من مذهبه على ما كان يخبر به وزراؤه . ولتد قال شيشلاند في حال هذه السفارة وشافنا بذلك ، وقال : هم الان عند التمكن طامعين بأخذ ظلاماتهم ، فلا يصح ذلك الا بضعف الحال والمطاولة ، حتى اذا لم يبق مال ولا رجال أخذناها بلا تكلف » (٦٩) .

تجاه ذلك الذي انكشف للملك الطوائف من خطط اعدائهم ، لم يستطيعوا ابداع تصور ، او وضع خطة مقابلة يلتزمون بها ، بل كانوا يمارسون سياسة يومية دون آفاق بعيدة ، ويجدون ملجأ بالتوكل على فرج يأتي من الله عز وجل ، حسب قول الملك المذكور « فكان الجميع يساير الامور ويدافع الايام ويقول : من هنا الى ان تتم الاموال وتهلك الرعايا بزعمهم يأتي الله بالفرج وينصر المسلمين » .

تطبيق خطة اخذ الجزية :

كانت طوائف الشفور قد خضعت لدفع الجزية منذ ايام فرناندو الاول . وعم ابنه هذا النظام على شبه الجزيرة كلها ، فخضع لها بنو ذي النون في طليطلة ، وبنو عباد في اشبيلية ، واخيرا الزيريون في غرناطة وعلى المضيق . وكانت عبارة عن دفعة اولى كبيرة ، نعرف منها الذي فرض على غرناطة وقدره ثلاثون الف دينار ، ثم جزية سنوية قدرها عشرة آلاف . وكان الملك الغرناطي خلال المساومة على المبلغ ، يقدم اعترافا بان كل ما يملك مرده لالفونسو « فخذ ما تقدر عليه واترك رمقا لا نستأصل من أجله ، وما تركت تجده عندنا ما طلبت » .

اما على المستوى السياسي ، فكان دفع الجزية مرفقا بحماية الفونسو لمن

يدفع « ووعدنا انه يحامي عنا كما يحامي عن بلده » ، وكذلك الاعتراف به كحكم ، فعند عقد اتفاق بين غرناطة واشبيلية تم بوساطة منه وبضمانته « ثم انه عقد العقد بين يديه على ذلك وانه لا يتعدى منا أحد على صاحبه » .

عندما أصبح الملك الاسباني في هذا الموضع تسابق الجميع لنيل الخطوة لديه عن طريق تقديم الهدايا له وتقديم ما يحتاجه في الازمات . فعندما حاصر طليطلة لاعادة يحيى بن ذى النون اليها ، هاجمه الشتاء ، وانعدمت الاقوات في معسكره ، فهب ملوك الطوائف الآخرون لتزويده بالمؤن (٧٠) . ويظهر ان هذا التقديم كان يتم سرا ، بينما يظهر الجميع علنا تعاطفهم مع اخوانهم في الدين أهل طليطلة ، مما جعل هؤلاء يطعمون في عونهم . لكن الفونسو اضطر لفضح هذا الامر كي لا يطول الحصار . وكان ذلك عندما طلب أهل طليطلة الذين عضهم الحصار من محاصرههم ، حسب عادة مرعية في تلك العصور ، ان يسمح لهم بهدنة يطلبون خلالها من الطوائف الآخري عونها ، فان لم تفعل سلموا له المدينة . فصار يسألهم عن سيطلون عوته ، وكلما ذكروا له ملكا من الملوك استدعى رسله ، حاملي المؤن اليه . فاسقط في يد مبعوثي أهل طليطلة واخبروا أهل مدينتهم بذلك ، فاستسلمت المدينة . وزاد تهافت ملوك الطوائف على نيل رضاه ، وصار يفخرون بأي اشارة دالة على ذلك . والحادثة المشهورة لديهم في هذا المجال هي ان حسام الدولة ملك شنتمرية الشرق (السهلة) تلقى من الفونسو السادس ، مقابل هديته الثمينة له ، قردا ، فكان يفخر بذلك ويعتقد انه دليل آمن .

من ناحية أخرى كان الفونسو السادس حريصا ، عند تطبيق اي خطة مرحلية ، ان تتم بشكل لا يمس بسلامة الخطة العامة ، او يعرقل تنفيذها . فعند طلبه من امير غرناطة الجزية ، وامتناع هذا الأخير عن تقديمها اول الامر ، عرض عليه ابن عمار ، وزير المعتمد ابن عباد ، أن يساعده على أخذها ويكون له ما بها من اموال ويدفع عنها خمسين الف دينار . لكن الفونسو استخدم العرض للتهديد والمساومة وتظاهر بقبوله ، ثم قبل من امير غرناطة ثلاثين الفا كدفعة اولى وعشرة الاف كل سنة ، وعلل الامير عبد الله ذلك بأنه لا يريد ان يعطيها للمعتمد بن عباد ، اذ سيتقوى بها ويصبح أخضاعه أكثر عسرا عليه .

ضمن هذه السياسة ، وبعد دخول ابن ذى النون طليطلة بمساعدته لعجزه عن كبح جماح الثورات ضده ، وجد الفونسو الفرصة حانت لقضم مملكته ، وكان رأي الوزير شيشلاند ، ان في هذا تسرعا سيجد فيه ملوك الجزيرة تهديدا ، وذلك بقوله

على لسان ابن بسام « ولا تلح على ملوك الجزيرة فلست تستغني عنهم ، ولا تجد عمالا
اطوع منهم ، فانك ان ابيت الا الاحاح عليهم والتسرع بالمكروه اليهم نفرتهم عن
ذراك واحوجتهم الى مداخله سواك » وهذا ما حصل ، اذ ان احتلال طليطلة وما
حولها جعل ملوك الطوائف يرون في ذلك تحولا من الحماية الى ثل العروش واحتلال
البلاد ، في وقت كان الغليان سائدا بين الناس ، والانظار متوجهة الى ما وراء المضيق
لطلب العون من المرابطين ، فتم ذلك ونزل المرابطون ليقفوا المد الاسباني ، ثم
ليقتضوا على ملوك الطوائف ويجعلوا الاندلس جزءا من دولتهم المغربية .



الحواشي :

- (١) ابن بسام ، الدخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، (القاهرة ١٩٤٥) ، ق ٤ ، م ١ ، ص ١٠٩-١١٠ .
- (٢) ابن عذاري ، البيان المغرب ، تحقيق بروفنصال ، ج ٣ ، ص ٢٦٦ .
- (٣) ابن حزم ، نقتل العروس ، ص ٥٠ .
- (٤) ابو الحسن النباهي ، الرقية العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، ص ٩١ - ٩٢ .
- (٥) الدخيرة ، ق ٢ ، م ١ ، ص ١٢ - ١٣ .
- (٦) الامير عبد الله الزيري ، التبيان في الحادثة الكائنة على بني زيري ، تح. بروفنصال ، ص ٦٢-٦٣ .
- (٧) الدخيرة ، ق ١ ، م ٢ ، ص ١٦٩ .
- (٨) ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٢٤٧ .
- (٩) الدخيرة ، ق ٢ ، م ١ ، ص ١٢٢ - ١٢٣ و ١٢٨ .
- (١٠) المصدر السابق ، ق ١ ، م ١ ، ص ٣٦٢ - ٣٦٣ .
- (١١) التبيان ، ص ٢٢ .
- (١٢) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ .
- (١٣) ابن ابار ، الحلة السيراد ، ج ٢ ، ص ١٠٠ .
- (١٤) ذخيرة ، ق ١ ، م ٢ ، ص ١٢٧ .
- J.V. Bermejo, Saqut al Barguati Al-Andalus, Vol. XXIII, (1963), p.201
- R. Menendez pidal, Espana del cid, Vol. 1, P. 284-285. (١٥)
- (١٦) الحميري ، الروض المطار ، تحقيق احسان عباس ، ص ٥٢٨ .
- (١٧) المصدر السابق ص ٥٩ و ٢٤٢ - ٢٤٤ .
- (١٨) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٦٢ .
- (١٩) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢١٨ .
- (٢٠) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١١٠ .
- M. Al-Abbadi, Los esclavos en Espana, Madrid, 1953. (٢١)
- (٢٢) رواية الوراق عند ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ .

(٢٢) رواية ابن حيان عند ابن الغطيب ، الإحاطة في أخبار قرطبة ، تحقيق عثمان ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٢٤) التبيان ، ص ٢١ .

(٢٥) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٢٦) التبيان ص ٢ .

R. Menéndez pidal, op. cit, p. 92

(٢٧)

الروضة المطارة ، ص ٩٢ و ٩٤ .

(٢٨) الروضة المطارة ، ص ٩٢ و ٩٤ .

(٢٩) العلري ، ترصيع الاخبار ، ص ٨٤ - ٨٥ .

(٣٠) الذخيرة ، ق ٤ ، م ١ ، ص ١٠٢ - ١٠٤ .

(٣١) المقري ، النفع ، ج ٥ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٦ .

(٣٢) الذخيرة ، ق ٤ ، م ١ ، ص ١١٢ - ١١٣ .

(٣٣) الذخيرة ، ق ٤ ، م ١ ، ص ١٠٤ - ١٠٢ .

(٣٤) القزويني : اثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٥٤٢ .

(٣٥) الذخيرة ، ق ٤ ، م ١ ، ص ١١٤ - ١١٥ .

(٣٦) رواية ابن حيان عند ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٣٧) العلري ، ترصيع الاخبار ، ص ٨٦ .

(٣٨) التبيان ، ص ٢١ .

(٣٩) ابن يشكوال ، الصلة ، ت ٨٦٥ . الذخيرة ، ق ٢ ، م ١ ص ٦٦ - ٦٩ .

(٤٠) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ .

(٤١) M, Asia, palacios, un codico inexplorada Cordobés ibn Hazm, Al-Andalus, Vol. II, 1934, pp. 1-56.

(٤٢) ابن الغطيب ، الإحاطة ، تحقيق عثمان ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

(٤٣) القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، ج ٢ - ٤ ، ص ٨٠٢ - ٨٠٨ .

(٤٤) رواية ابن حيان عند ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٥٤ .

(٤٥) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٠٦ .

- (٤٦) الخشني ، فضة قرطبة ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .
- (٤٧) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ٤٤ .
- (٤٨) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٩٧ - ٩٨ .
- (٤٩) المصدر السابق ، ص ٢١٢ .
- (٥٠) ابن عذاري ، ص ٢٠٨ .
- (٥١) اللخيرة ، ق ، ١م ، ص ١٠٥ .
- (٥٢) المقرئ ، النفع ، ج ٥ ، ص ٢٠٢ و ٢٢٦ - ٢٢٧
- Diccionaria Historica Espanol, Arts, Alfonso VI, Y Fernando I. (٥٣)
- الطبري ، توضيح الاخبار ، ص ٨٦
- Sanchez Albornoz-Espana, un Enigma Historico, Vol. I, pp. 114-117. (٥٥)
- Diccionario Historico Espanol, Vol. II Arts, Fernando I. (٥٨)
- R. Menendez pidal, op. cit. (٥٧)
- Mayer, Historia de las instituciones Espanoles, p. 106. (٥٦)
- Alfonso VI, Y su hermano la infanta urroca, Al-Andalus, Vol. XIII, (٥٩)
- (1948), pp. 150 - 661.
- (٦٠) اللخيرة ، ق ، ١م ، ص ١٥٥ .
- (٦١) المصدر السابق ، ق ، ٤ ، ١م ، ص ١٢٩ .
- R. Menendez piad, op. cit, p. 83 (٦٢)
- (٦٣) المصدر السابق ، ص ٦٢ - ٦٣ .
- J. Read, the Moors in Spain and portugal, p. 103 - 104. (٦٤)
- (٦٥) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٨٢ .
- (٦٦) التبيان ، ص ٧٢ .
- (٦٧) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٥٢ .
- (٦٨) المصدر السابق ، ص ٢٨٠ .
- (٦٩) التبيان ، ص ٧٢ ،
- (٧٠) اللخيرة ، ق ، ٤ ، ١م ، ص ١٢٨ .